Orient. Seminar
UNIVERSITÄT
78 Freiburg/Br.
Inv.
Az 14/8

المقتطف

الجزء الاول من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ يناير سنة ١٩٤٩ ١ ربيع أول سنة ١٣٦٨

الروحانية وتطورها

عند البدائيين وفي العصر القديم

— ٣ —

إن تعاليم أفلاطون في النفس وعلاقتها بالبدن، قد تناثرت في خلال عدد من محاوراته، كتبت في خلال أوقات متفرقة . وفي أثناء الطور الطويل الذي مارس فيه نشاطه الفلسفي ، جرى على آرائه كثير من التغير والتحوير . ومن أجل هذا ، ومن أجل أن كثيراً مما كتب في النفس ، قد صبّ في قالب « رَمْزيَّة » استمدت من الروايات الأسطورية التي كان غرضها أدبيّ جماليّ أكثر منه علمي صرف ، يصعب بل يتعذّر أن نلخص مذهبه ونصبّه في قالب بين القسمات ، أو نجلوه في عبارات محدودة المعاني جامعة التعريف .

إنّ نظرة أفلاطون في النفس كما صيغت مراميها في محاوراته الأولى ، كانت جزءاً من نظرة له في « الوجوديّة » Ontological ، كان للاخلاق فيها الأثر الرئيس . فأول شيء تأنسه من ذلك أنه فرّق بين عالمين : عالم المجهول وهو الوجود الحقيقي الذي يتألف من أفكار لا زمانية ثابتة ، وعالم الايجاد وإليه ينسب أشياء الادراك الحسّي ويتضمن بالضرورة جسم الانسان .

أما الأرواح فوجودات من طبقة ثالثة ، مهمتها أن تتوسط بين ذينك العالمين . أما مكانها في ذلك المذهب الوجوديّ ، فكان ذي صفة خاصة . فبمعنى مًا تتبع الأرواح العالمين معاً ، لأنها تظل ناشطة فيهما . وللارواح علاقة بالأفكار ، ومن طريق هذه العلاقة

أو الصلة ، تأتي قدرتها على التأمل في الأفكار أو معرفتها . وهي كالأفكار لا مادية وحقيقية معاً . ولكنها بالضرورة مختلفة عن العالمين كليهما ، بحكم إنها تدركهما . وفضلاً عن ذلك فان الأرواح أكثر اختلافاً مع الأبدان ، إذ ليس في جوهرها شيء يتفق مع طبيعة الأجسام . أما نشاط الأرواح فمن ضربين : قدرتها على أن تعرف ، وقدرتها على أن تتحرك أو أن تحدث الحركة . أما القدرة العرفانية فتمارس بطريقين مختلفين : فانها بطريق التأمل المباشر في الفكرات تحصل على المعرفة الحقيقية . ومن طريق مساعدة الكفايات البدنية تحصل على إدراك أشياء العالم الخارجي . وهذان الطريقان من النشاط العرفاني يفرق بينهما في العادة بأنهما العقل والحس ، ولقد أشار إليهما أفلاطون فقال بأنهما من وظائف أجزاء الروح المختلفة . فكأنه اعتبرهما مصدراً لضربين مختلفين من المعرفة تختلف قيمتهما كل الاختلاف ، فأحدهما مصدر للمعرفة الحقيقية ، والآخر مصدر للآراء السانحة .

وفيما يتعلق بوظيفة الروح من حيث أنها مصدر الحركة أو عنصر الحركة ، فانه ينبغي لنا أن نلحظ أنه بينما يذهب الفلاسفة السابقون لأفلاطون الى أن الروح (أو الجواهر الروحية) إنما تتحرك حركة ذاتية في الفراغ ، وانها ذات قدرة على نقل حركتها الى أشياء أخرى ، فان أفلاطون لم يعتبر الروح متحركة أو أنها في حركة ، بل إنها المصدر الذي يولد الحركة . هذا على الأقل ما يلوح للنقاد أنه رأيه في الروح . ذلك بالرغم من أن ارسطوطاليس قد نسب إليه اعتناقه للمذهب القديم ، وأخذ يفنده بطريقته المنطقية المعروفة .

هذا الموقف الوسط بين عالمي الوجود ، وهو الموقف الذي أنزلها فيه أفلاطون بين عالم الفكرات ، وعالم الأشياء المحسوسة ، لم يرض الكثيرين من شراح أفلاطون ، حتى ان بعضهم قد قال بأن أفلاطون في أوائل أمره إذ بدأ بالتفريق بين ذينك العالمين ، قد استعصى عليه بعد ذلك ان يضع تفسيراً صالحاً لمشكلة النفس يلائم مذهب الوجودية الذي اتخذه أساساً لنظريته ، وان نظرته الثانية لم تكن غير تكييف نظري لمذهبه في الروح اضطره اليه موقفه الأول ، فعادت الروح عند أفلاطون فاحتلت المقام الأول والقيمة العليا ، بعد ان كانت في أول الأمر تذييلاً لنظرة وجودية أو تفريعاً عليها .

ومهما يكن من أمر النظرية الأفلاطونية في الروح ، فان علاقة الروح بالأفكار وتعاليم

أفلاطون في أنها لا مادية صرفاً وإنها خالدة لا تفنى ، أمور واضحة كل الوضوح في كتاباته الكثيرة . فروح الانسان ، ولو أنها مستمدة بصورة ما من الروح الأكبر أو الروح الكوني ، فانها ليست ظلاً أو أثراً من آثار الطاقة الكلية أو الحياة أو العقل ، على ما صورت في فلسفة الأيونيين من قبل . إنها موجود فردي كامل الصفات ، وإنها أساس الشخصية . على هذه الصورة تكون الروح في عالم الوجود الكلي قبل ان تتجسد . ومن ذلك العالم تستمد الروح المعرفة بالآراء من طريق التذكر . وهكذا يكون شأنها في كل ما يقع لها من تجسدات تالية .

والنفس أو الروح ، بصرف النظر عن اتصالها بهذا الجسم أو ذاك من الأجسام العضوية ، فان نشاطها نشاط عقلي صرف ، وارادتها هي إرادة الشيء الذي يفهمه العقل . ولكن إذا انفصلت عن عالمها الروحاني المحض ، واتصلت بعالم المادة فحلت في جسم عضوي ، فان الروح أو النفس تمارس فضلاً عما يقتضيه الاتصال بالبدن العضوي ، بعض وظائف سفلى كالانفعالات الصارخة والشهوات الجسمانية . وهذه الصور الثلاث التي تلابس النشاط النفسي ، ترجع الى ثلاثة أجزاء تتركب منها النفس . وفي كتاب «طيماوس» Trimaeus : عينت بثلاث نفوس مستقلة ، لا ثلاثة أجزاء لنفس واحدة : النفس العاقلة ومقرها الرأس أو الدماغ ، والنفس الروحانية ومقرها القلب ، والنفس الحيوانية أو الشهوانية ومقرها الأحشاء . ولكن الظاهر من عبارات أفلاطون أن هذه المعاني لا ينبغي أن تؤخذ على ظاهرها ، ذلك بالرغم من أن أفلاطون قد يتكلم بعض الأحيان عن الوظيفتين السفليين للروح كأنهما من خصائص نفس فانية ، ويصمت صمتاً كلياً عن التعريف بالمدى الذى يصل تينك الوظيفتين بالروح بعد ان تخلص من قيد البدن . على ان هذه الأجزاء الثلاثة التي تتألف منها النفس يمكن أن تعتبر ثلاث مدارج تلابس الوظيفة العقلية ، لا مظاهر نشاط تصدر عن ثلاثة نفوس أو ثلاث كفايات . أما العليا من هذه الكفايات فهي وحدها التي يمكن أن تمارس بعيداً عن الجسم ، أي بعد الانفصال عنه .

* * *

العقل يحكم الكفايات الدنيا ، ولكنه لا ينجح في ذلك في جميع الظروف والحالات . فاذا أفلتت هذه الكفايات الدنيا من حكم العقل ، متخذة البدن مطية وطريقاً الى الاسفاف ،

فان النفس تعاني التنكس والاتضاع ، وينبغي لها حينئذٍ أن تتجسد ثانية في قوالب بدنية أحط من تلك التي تجسدت فيها ، وقد تكون أبدان حيوانات . من طريق هذه التجسدات المتتالية تتمكن الروح من التحرر من ربقة السفالات بالاستقواء على النزعات السفلية التي يجبرها البدن على الخضوع لها . فاذا تمّ لها ذلك عادت الى محلها الحقيقي ، عالم الوجود الأبدي الذي لا شيء فيه من متاعب هذا العالم .

لا شك في أن تعاليم أفلاطون في النفس وتقمصاتها أي تجسداتها ، قد استمدَّت في أكثر الأمر من المذهب « الأورفي » اللاهوتي : Orphic Theology . ولقد رفعت تعاليمه تلك العقيدة الدينية وأضفت عليها من جلال الفلسفة ، فكسب أنصاراً وزادت انتشاراً . والحقيقة ان مذهب أفلاطون في النفس آخر ما تطورت فيه فلسفة الروحانية في العالم الاغريقي ، ولو انها استمدّت أصلاً من مبادىء شاعت في مذهبين لاهوتيين : هما المذهب الأورفي والمذهب الديونيسي . فان أفلاطون استطاع أن يخلص الفكرة في النفس من تلك الازدواجية المادية التي شاعت في العقائد البدائية التي كانت ما زالت حتى عصره شائعة في المذهب الأورفي ، ومن طريق اصراره على التفرقة بين النفس والجسد ، استطاع لأول مرة في تاريخ الفكر ، أن يصور مذهب الازدواجية النفسيطبيعية ، ويوثق له بفكرة التبادل التأثيري بين النفس والبدن .

* * *

بالرغم من ذلك الصيت الضخم الذي اختصّ به اسم أفلاطون في عالم الفلسفة والتأمل ، فان مذهبه في الازدواجية النفسيطبيعية لم ينل كثيراً من الأنصار في خلال الأزمان التي عقبت انتشار مذهبه . بل قد لاح في بعض الأحيان كما لو أن هذا المذهب قد فقد كل تأثير له في عالم الفكر . فان الاتجاه العقلي عاد بُعَيْد أفلاطون الى التأمل المادي الذي وضعه الفلاسفة الأيونيون . فأنت قلما تعثر على بحوث في النفس شاعت بعد أفلاطون مباشرة فأخذت الفكرة الروحانية تفقد أهميتها وقيمتها في عالم الفلسفة . فما أشبه تلك الفترة بفترات نعهدها في تاريخ الفكر في خلال القرن التاسع عشر . ولكن عند ذاك ظهر المعلم الأول أرسطوطاليس ، فوقف بهامة الجبار على المدخل الأعلى لعالم الفلسفة .

ا. م.

نظرات في النفس والحياة

- ١١ -

نظرات لابرويير

لا تتم النظرات التي اقتبسناها من الأدب الفرنسي من غير اقتباس بعض نظرات لابروبير والتعليق عليها بما يناسبها من الآراء . وقد ترجم حياته ونقده الكاتب المطلع جورج نيقولاوس في عدد ماضٍ من أعداد المقتطف ، ولكنه لم يكثر من الاقتباس منه . وكنت قد اطلعت على إعلان عن ترجمة كتابه الأخلاق ولكني لم أره . وفي بعض التعليق الذي نضيفه الى نظراته ما يجلوها بذكر ما يوافقها أو يخالفها من آراء المفكرين. وقد كان لابروبير معاصراً للاروشفوكولد وهو ينحو نحوه وتارة يرتفع الى مستواه ، وتارةً ينخفض عنه . ونجده في بعض نظراته يتردد في رد فضائل الانسان كلها وعيوبه الى الأثرة وحب الذات كما ردها لاروشفوكولد . والمفكرون مختلفون في هذا الرد كما سيتضح وقد درس لابروبير القضاء وزاول منصباً اداريًا في نورمانديا . ثم عين مربياً ومعلماً لدوق بوربون حفيد امير كوندى ، وانتخب عضواً في المعهد العلمي الفرنسي . وعندما أدركته المنية كان قد ألَّف من هذه النظرات ألفاً ومئة. فلعلّ اكثاره سبب تفاوته فيها. وقد وصف الفلاح الفرنسي وصفاً ينذر بالثورة الفرنسية قبل أوانها . وهذه بعض نظراته وأفكاره :

(١) اذا صحّ ما يقولون من أننا نشفق على التعساء إشفاقاً على أنفسنا أن نصير يوماً مثلهم تعساء ، فلماذا لا نعطف عليهم ولا نحسن إليهم ولا نشاركهم فيما تنال من النعمة إلا بهذا القدر الزهيد التافه ؟؟ . ولهذا أسباب منها : أنه اذا كان جانب من النفس يعطف ويحسن خشية أن تصير مثل من تحسن إليه، فان للأثرة جوانب أخرى تدفعها الى الاستئثار بخيرات الحياة . ثم ان الاحسان الزهيد التافه قد يُرضي ضمير المحسن فلا يُحس ألماً، بل إن

الرحمة من غير إحسان ومعونة قد يعدها من يشعر بها تكفيراً عن كثير من وسائل الاستئثار بالخير، وان لم يصحب الرحمة برّ فتعيد الى نفس صاحبها الاطمئنان، وتدعوه الى استئناف الكفاح والمنافسة في خيرات الحياة . ومن عوامل الزهد في البر والاحسان الخوف اذا بذل المرء ما عنده أن يصير مثل من يحسن إليه . وكل هذا لا ينافي أن المرء قد يحسن احساناً زهيداً تافهاً خشية أن يصير مثل من أحسن إليه. وان الاحسان هنا من الأثرة وباعثه حب الذات . والتكفير عن وسائل الاستئثار أو عن السعادة .

على أن كثيراً من المفكرين ينكرون أن تكون كل دوافع النفس أساسها واحداً. وينكرون أن تكون كلها مردودة الى عامل الأثرة وحب الذات . قال هازليت إن أحاسيس النفس المتضاربة وأهواءها المتباينة وهواجسها المتنافرة تُبطِل أن يكون للنفس أساس واحد وهو حُب الذات، اذ كثيراً ما يتعس المرء نفسه لأسباب تافهة لا تفيده بل تضره. على أن هذا لايمنع أن يكون مَرَدُّ كثير من الأمور التي تتعس المرء الى الأثرة الخرقاء الحمقاء التي تتعس المرء وهو يظن انها تسعده، كما لايمنع أن يكون الايثار نوعاً من الأثرة كأن ترجو به النفس العلاء والحمد وطيب الذكر والظفر بالايثار، فهي تتجنب الأثرة وتختار الايثار لِأوجهٍ من النفع. واذا أخذ الانسان برأي شوبنهور في وحدة الحياة وانه مظهر من مظاهرها فحسب، وان اعتبار نفسه وحدة مستقلة من خطأ الحواس والاحساس استطاع أن يتخلص من بعض إثرته إلاّ إذا عدّ نفسه الممثّل الأعظم لوحدة الحياة وإرادتها، وإنه من أجل ذلك أحق بالخيرات والاستئثار بها . وكان (كانت) الفيلسوف الألماني يعد الواجب المفروض فكرة أولية في النفس . وقال ينبغي أن يعمل الانسان بحيث يصح أن يكون عمله وخلقه مبدءاً عامًا. وهذا مشتق من قول جان جاك روسو: ان كل انسان ينبغي أن تكون ارادته الخاصة مطابقة للإرادة العامة للأمة. وأعتقد أن كل هذه الآراء مشتقة من الفكرة القديمة التي توجد في كتب الأدب العربية كما توجد في الانجيل على لسان عيسى عليه السلام وهي: ينبغي للمرء أن يعامل الناس كما يود أن يعامله الناس، أي حب للناس ما تحب لنفسك . ومن الغريب أن الأستاذ توماس هوكسلي (أي هوكسلي الكبير) في مجموعة رسائله يرفض هذا المبدأ بدعوى أن كل إنسان يود أن يغتفر الناس قسوته وجرائمه

وآثامه، فلو اغتفرت كل الآثام والجرائم أصبح العالم فوضى وانتشر الشر . وبديهي أن هوكسلي فسرها على غير معناها ، إذ أن معناها : عامل الناس بمثل ما تود أن يعاملوك به من التعاون التام والامتناع عن القسوة والآثام في معاملتهم لك . على أن أداء الواجب ليس فكرة أولية كما زعم (كانت) بل هي فكرة مكتسبة ولا هي راسخة في النفوس ، بل كثيراً ما تنتفي في النفس وتحل محلها الأثرة الجامحة القاسية . ولكن مما لا شك فيه أن الانسان قد تتأصل فيه روح التضحية حتى يكون عمله بباعث نفسي عكس قوله ورأيه ، كما في قصة روبرت جرانت الكاتب الأمريكي المسماة (عمله ضد رأيه) وهي قصة رجل مفكر أبى أن يحبذ عمل انسان أودى بحياته في انقاذه طفلاً صغيراً لأن هذا المضحي الذي أنقذ الطفل ومات في أثناء انقاذه قد خلف زوجة وسبعة أطفال وهو كاسب رزقهم وتحمل المنكر عليه عمله اشمئزاز أصدقائه من رأيه ، ولكنه بعد زمن فعل مثل الفعل الذي أنكر تحبيذه بدافع خفي من نفسه فأنقذ طفلاً من الهلاك وهلك بسبب ذلك، وهذا يذكرني قصة (على الحدود) لموريس لي بلان وبها مفكر يرى أن الحروب لا تبطل الاَّ إذا امتنع كل انسان عن القتال حتى ولو غزيت أمته في عقر دارها . ولكنه لما رأى الألمان أغاروا على الحدود حمل سلاحه بدافع غريزي من نفسه وذهب ليقاتلهم وليدافع عنها . وهذا غير ما فعل رومان رولان الكاتب الفرنسي الذي أبى الحرب وأبى القتال ورفض حمل السلاح وترك فرنسا وذهب الى سويسرا فسقط في نظر كثير من الفرنسيين. وقد قال «كانت» أن المرء لا يستطيع أن يحكم أن الواجب هو الذي يدفعه الى عمل من الأعمال إلاَّ اذا كان هذا العمل يخالف رغباته المحبوبة السارة، وليس معنى ذلك أن الواجب لا يكون واجباً الاَّ إذا كان كريهاً بغيضاً مخيفاً، وانما هذه فكاهة من شيلر الشاعر الألماني يداعب بها «كانت» وقد كان معجباً به . وبعد كل هذه الجولة في التفكير فاننا لم نقطع برأي باتّ في تساؤل لابروبير .

(٢) قلما يلتذ المرء أن يرى نفسه مكلفاً بمعاونة انسان في حاجة اليه. ولكن من الغريب أن الحظ السعيد اذا جعل هذا الانسان في غنى عنه وعن مساعدته فانه قد يسر لرفع العبء عنه، ولكن سروره لا يكون تامًّا بل قد يمازجه شيء من الامتعاض كأنما ذلك الحظ السعيد الذي أغنى ذلك الانسان عنه قد انتقص من قدره ، لأن احتياج المحتاج اليه يشبع

غروره وزهوه بالرغم من عبثه . واشباع زهوه يدعو اطمئنانه الى قدر نفسه وعظمتها، أو قل إن الاثرة في باطن نفسه كانت تفضل أن يزاد سعداً على سعد بأن ينال الحظ السعيد الذي ناله المحتاج اليه، ثم يظل ذلك المحتاج اليه محتاجاً اليه . وكذلك اذا نال صديق نعمة أو منزلة أو جاهاً فان المرء يبتهج بما نال صديقه ويسر له، ولكن سروره كثيراً ما يمازجه امتعاض خفي ، فالسرور بنعمة الصديق لا ينفي وجود عكسه من حسد أو تنغيص أو ألم، لأنه لم يزد حظًّا على حظ بدل أن ينال الحظ صديقه. وهذا من اجتماع الأضداد في النفس وقد تجتمع .

(٣) ان الذي يستطيع أن يصبر صبراً طويلاً قبل نيل ما يريد لا ييأس كل اليأس إذا لم ينله. أما الذي يترقب نيله بشغف ولهفةٍ لا صبر فيهما فانه أكثر تعرضاً لليأس. ثم هو إذا نال ما يريد لا يرى ما ناله بعد آلام اللهفة كفاء لما قاسى في سبيل توقع نيله وارتقابه من عنت الشغف واللهفة ، فكأنه لم ينله كله أو بعضه :—

وهذا اذا كان الشغف به لا يزال في نفسه كله أو بعضه أما اذا كان قد زال أكثره فان مارسيل بروست صادق في قوله إنه اذا تحققت الرغائب بعد زوال الشغف بها قنعنا منها بأقل مما كنا نقنع من قبل اذ الشغف لا يزال قاهراً حادًّا .

(٤) الانسان يزداد مع الزمن ألفة لمن صنع معهم جميلاً وأحسن إليهم، ولكنه يزداد نفوراً ممن أساء إليهم. وذلك لأن رؤية الطائفة الأولى تزيد حسن رأيه في نفسه. أما الطائفة الثانية فان رؤيتها تذكره إساءته إليهم فتقلل من حسن رأيه في نفسه حتى ولو كان جانب من نفسه يباهي بقدرته على الإساءة فان جانباً آخر من نفسه يبصره بعيوب نفسه ولو كان ذلك عن طريق الوعي الباطن الخفي .

(٥) الناس يذمون الاسراف في كل الأمور إلاّ الإسراف في شكر نعمتهم عليهم، فانهم قلما يذمون الاسراف في شكر نعمتهم — الاّ اذا فطنوا الى أنه يراد به المزيد من النعم التي لا يريدون أن يجودوا بها — ولكن الناس في أكثر الأحوال يطلبون المزيد من شكر نعمتهم مهما بالغ الشاكر في شكرها، ولا يرون شكره كفاء لما أولوه من النعمة، بل يرون أنه دائماً مدين لهم بالشكر .

(٦) الحديث المحبوب لدى القلب أطيب من الحديث المقنع للعقل بحججه . ومن أجل ذلك تُصغي النفس الى ما تود أن تسمعه أكثر من اصغائها الى ما يقنعها — بل هي تصنع أكثر من ذلك فتستنبط للحديث الذي تود أن تسمعه براهين وأدلة كي تقنع نفسها أنه أقنعها، وإنها لم تصغ إليه لأنه محبوب تود سماعه، بل أصغت إليه لأنه يدلي بالمنطق الحق والبرهان الصادق، وأحياناً لا تكلف نفسها مؤونة ذلك وتكتفي بأنه حديث شائق محبوب تود سماعه .

(٧) الرجل يصعب عليه، لا سيما اذا كان على شيء من الكِبر، أن يغتفر لآخر اطلاعه على سقطة أو زلة أو سيئة بدرت منه، وخاصة ان كان عند المطلع على زلته أسباب وجيهة تدعوه الى مؤاخذته أو لومه، ولا يهدأ غضب صاحب السقطة أو الزلة أو السيئة إلاّ إذا ألزم الآخر مثلها وأظهره في مظهر شبيه بها فكأنه بذلك يمحو أو يخفي أو يهوّن من أمر زلته أو عيبه، ويزداد قدراً لدى نفسه . ولما كانت العيوب والسيئات شائعة بين الناس كثيراً ما يتعاونون لتهوين زلاتهم بالزام غيرهم سيئات مثلها .

(٨) كثيراً ما تصدر من المرء أعمال عظيمة واحساسات نبيلة فتنسب الى حب الخير الغريزي في النفس البشرية. والحقيقة انها بسبب ما اكتسبه بالعادة والمراس والمحاكاة للخلق السائد الممدوح لدى الناس، فان هذه الأمور تكسب المرء قوة خلقية. أما غريزة الخير فانها تضعف لولا العادة والقدوة وهما يزيدانها تمكناً .

(٩) كثيراً ما يكون ضعف المرء وعجزه باعثين له على البغض والكره والمقت، إذ لو كان قادراً غير عاجز للجأ الى وسائل أخرى . والرغبة في الانتقام وطول التفكير فيه هما بسبب هذا الضعف لأنه لم تتم له بعد أسباب القدرة عليه، فضعف المرء يدعوه الى كره الناس. ولكن كسله وحبه الراحة والدعة والاطمئنان والسكينة أمور قد تدعوه الى التخلي عن كرهه وعن محاولة التشفي . ومن أجل ذلك كان من الصعب ان يقهر المرء غضبه في أول الأمر إذا غضب على انسان، ولكن اذا تراخى به الزمن كان من الصعب أن يعاني شعور الغضب والبغض على الدوام لأنه يقلل من راحته وهناءته، إلاّ اذا جعل للسخط والرضا تداولاً وتعاقباً على نفسه .

(١٠) من الصعب محاولة إغراء المرء باتباع رأيك في الأمور الكبيرة قبل ان تتمكن من أن تعوّده على اتباعه في الأمور الصغيرة التافهة. فان المرء يأنف ان يعمل حسب ما يوحي به غيره — حتى ولو كان صواباً — إلاّ إذا كان الموحي المغري صاحب لباقة تمنع الموحى اليه من الشعور بالأنفة والغضاضة والهوان اذا اتبع رأيه، وتنيم إباء نفسه ان ينقاد لرأي غيره، فاذا لم يكن المغري بالرأي الموحى به صاحب لباقة كهذه اللباقة دفع المرء الاستحياء أو الكبر أو هوى النفس الى رفض ذلك الاغراء والتحكم، ولكنه اذا تعوّد أن ينقاد في الأمور الصغيرة التي لا يرى أنفة في الموافقة عليها بسبب زهادتها وتفاهتها، انزلق واسترسل به التعود فينقاد في الأمور الكبيرة. وهذه حقيقة يعرفها الناجحون في الحياة الذين يحملون الناس على قضاء ما يريدون وقد يحملون من هم أكبر عقلاً منهم، ومن تظن انهم لا ينقادون لأمثالهم وانما يفعلون ذلك باتباع هذه الحقيقة النفسية السيكولوجية. وكثيراً ما يكون الضعف سبب انقياد المرء لرأي غيره. ولكن الكسل وحب الراحة من أسباب هذا الانقياد. وهي حقيقة يستغلها ويستثمرها ذوو الالحاح لنيل مطالبهم، وكأنهم ينتهزون فرص استرخاء الكسل والدعة ومحبة الراحة ويعرفون صفاتها وأوقاتها فيهجمون في حالاتها على من يريدون الالحاح معه باللباقة كتلك التي وصفت.

(١١) قد يكون من الدهاء أن نعامل أعداءنا على أمل أن يكونوا يوماً أصدقاءنا، وان نعيش مع أصدقائنا على حذر من أن يصيروا يوماً أعداءنا. ولكن هذا يجافي أصول المودة والعداوة. وقد يدعو الى أخلاق غير فاضلة والى تكلف ما ليس من الصدق والنبل، والى استخدام الكذب والرياء. وأفضل من ذلك أن لا يصاحب المرء الاّ ذوي العقل والأمانة والشهامة الذين اذا صاروا أعداءه عادوه من غير أن يتعدوا حدود العقل والأمانة والشهامة — ولكن هل يستطيع دائماً أن يميز من لا يتعدون حدود العقل والأمانة والشهامة في عداوتهم ؟. في بعض الأحايين يستطيع تمييزهم بأن يفحص معاملتهم لأعدائهم قبل أن يصادقهم. فاذا وجد انهم يعاملون أعداءهم بالخيانة وقلة الشهامة والرعونة، استطاع أن يعرف انهم لو صاحبوه ثم عادوه، عاملوه بمثل تلك المعاملة التي تدل على لؤم العداوة وخستها وغدرها وحماقتها.

(١٢) لو اننا لم نسرّ وتأنينا فلم نضحك إلاَّ بعد زوال جميع منغصات حياتنا، وبعد كمال سعادتنا، لكان من المخوف أن نموت قبل أن نضحك. والحقيقة ان الضحك أو حتى تكلف الضحك، قد يقلل من متاعب الحياة. ولكن كثيراً من الناس يتشبثون بمنغصات حياتهم ومتاعبها، بأن لا يبيحوا لأنفسهم الضحك إلاّ بعد زوالها فيكون تشبثهم بها بحرمان أنفسهم من الضحك باعثاً على بقاء متاعبهم وثقل عبئها.

(١٣) أحب الرغبات الى الانسان التي لا تتحقق، لأنها متى تحققت وفاز بها ألفها واعتادها ووجد بعض الملل في نفسه إليها سبيلاً في بعض الأحايين فتقل قيمتها. وكثيراً ما نرى الرغبات التي تتحقق ويفوز بها الراغب تواتيه في غير أوانها الذي يسعد بها فيه أو توافيه في حالات من حالات نفسه. وفي ظروف من الحياة تقلل من المتعة بها. ولهذه الأسباب كلها تقل قيمة الرغبات اذا تحققت مهما كانت عزيزة محبوبة قبل الوصول إليها. فلا تقنع الفائز بها، ولا ترتاح نفسه، ولا تهدأ، وهو كذلك لا ترتاح نفسه، ولا تهدأ، اذا لم تتحقق الرغبات بسبب ألم اللهفة. فالانسان قلما يرضى سواء تحققت رغباته أو لم تتحقق. وفي هذا عظة له وعبرة لو يعتبر.

(١٤) إنَّ ألم الحزن لفقد من نحب أقل ثقلاً على النفس من نكد العيش مع من نكره. ومن منغصات الحياة مع من نبغض، لأن ألم الحزن على الفقيد المحبوب يثقله مرور الأيام، ويكتسي وشياً من الذكريات الجميلة التي تكسب الحزن شيئاً من مباهج الجمال. أما العيش مع البغيض المكروه فانه يزداد ثقلاً على النفس فتزداد به غمًّا ما دام دائماً لم يزل.

(١٥) المودة المستكملة الصادقة في كل بواطنها ومظاهرها، أندر وأقل حدوثاً من العشق الشديد. وفي المودة نأتمن الصديق على أسرارنا بمحض إرادتنا. أما في الحب فلا إرادة فيه، بل قد تذيع أسرارنا بالرغم منا. وقلما تزول الصداقة إلاَّ لأسباب تدعو الى نقضها كالغدر أو الاساءة التي لا تقبل، أو الجفاء الذي يدل على الغلظة. أما الحب فقد يوجد كأشد ما يكون بالرغم من هذه الأسباب. فاذا زال فقد يزول من غير ما سبب، بل يفيق المحب الى أنه قد صار لا يحب حبيبه وهو هو لم يتغير. وقد يولد الحب بغتة من غير ارادة أو تفكير. أما المودّة فانها في حاجة الى العشرة والألفة والزمن كي تنضج ثمراتها. وقد يكون أشد الحب الحب المباغت من أول نظرة. وربَّ نظرة الى وجه جميل أو يد رشيقة قد تصنع بالقلب في طرفة عين، ما لا تصنعه أعوام طويلة زاخرة بالعطف والمودة وأداء المعروف.

(للبحث بقية)

ع . س

قصة الكلشيسين (الزعفرين) وتكثير عدد الأنداد في الخلايا

مضاعفة شحنة النواة

وأثر ذلك في النبات والغلّات الزراعية

تنشأ النباتات والحيوانات من خلايا فردية ، هي في أغلب المتعضيات بييضات مخصبة . ويحدث التنشؤ الذي يتم بانقسام هذه الخلايا المتتابع ، ازدياداً مطرداً في عددها . فالكائن العضوي البالغ هو في الحقيقة ركام معقد التركيب ، يتألف من ملايين الخلايا . وقد تتغيَّر هذه الخلايا شكلاً وبناءً في اثناء عملية التنشؤ بطرق شتى ، وفقاً للوظائف الخاصة التي تؤديها الخلايا في الأنسجة المختلفة المقوِّمة للكائن العضوي . فخلايا الجذور في النبات تختص بامتصاص الماء والأغذية المعدنية . وخلايا الورق تتهيأ تهيئة خاصة لتركيب الفحماويات (الكربوهدريتات) من ثاني اكسيد الكربون المنتشر في الجوّ .

والانقسام والتخلق ، اللذان يصيبان الخليّة ، كلاهما من عمليات الحياة الجوهرية ، وعلى فهمها ومعرفة أسرارها والاحتكام فيهما ، يتوقف كثير من الممكنات العملية ذوات الآثار البالغة ، بل إن لنا أن نقول إنه كما وجهت دراسة الذرّة (الجوهر الفرد عند القدماء) خطى التقدم في الكيمياء والفوزيقي ، كذلك سوف يؤدي درس الخلية الى تقدم ذي بال في علوم الأحياء والطب والزراعة .

ان الجسم الرئيس الذي يحتكم في الخليّة الحية هو النواة ، والذي من شأنه أن يتحول الى عناصر شبهعصوية ، تسمى الصبغيات ، قبيل أن تأخذ الخلية في الانقسام مباشرة . (أنظر الشكل ١) . وفي كل النباتات تقريباً تزود الخليتان الجرثوميتان : الذكرية والأنثوية : البيضية المخصبة بعدد متساوٍ من الصبغيات . وفي الأنواع التي تعتبر أبسط صور النباتات من الحيثية الوراثية ، يقابل كل صبغي في خلية اللقح الذكرية ، ندٌّ له يكون في الخلية

الجرثومية الأنثوية . وتعرف مثل هـذه النباتات التي يكون لها مجموعتين متناظرتين من الصبغيات باسم النباتات « ثنائية الأنداد » . وفي الشكل الأول صبغيات من نوع ثنائي الأنداد (Trillium) وقد يلاحظ أنه من الممكن ترتيبها أزواجاً وفقاً لحجمها وهيئتها . فصبغي من كل زوج قد استمد من بييضة ، والآخر من حبيبة لقح . وهكذا الحال في المجموعات الخمس E. , D , C, B, A (الشكل ١) .

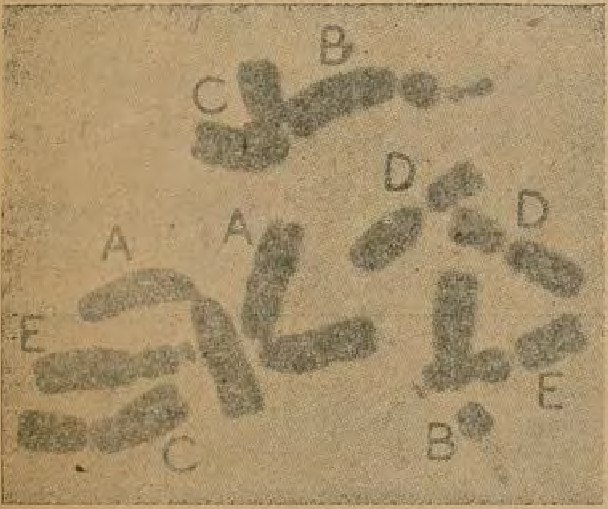

شكل (١)

هذا على وجه الضبط ، هو الأسلوب الذي يتم به انتقال الوحدات الناشطة ، التي تسمى المورثات ، من الآباء الى الأبناء — وانما تنقلها الصبغيات من هؤلاء الى أولاء . والى هـذه المورثات تعود كل الخصيات الوراثية في النبات ، كزمن البلوغ ومقدار الغلة وطرق النماء ومقاومة الأمراض ولون الأزهار والثمار ، وعلى الجملة كل ما يتعلق بفطرتها التى تجعل النبات ما هو في الحقيقة .

هذه الصبغيات المتقابلة في خليتي الذكر والأنثى ، يحمل كل منها مجموعة من المورثات لها خصيات معينة . ومعنى هذا علمياً أن النبات تحتكم فيه أفعال موحدة تصدر عن عدد متساوٍ من المورثات تستمد من كلا الأبوين .

وفضلاً عن هذا فان هذه الصبغيات تتحكم في عملية انقسام الخلية في اثناء التنشؤ ، حتى أن كل خلية مولودة بالانقسام تكون حاوية عدداً من الصبغيات مساوٍ لعدد الصبغيات التي تكون في البييضة الملقحة الأصلية . ومن هنا نجد أنه بينما تختلف المتعضيات في عدد الصبغيات وطرازها ، بحكم أنها تحمل مورثات مختلفة ، فان كل خلية من خلايا الجسم في

كل نوع بعينه ، يكون فيها من الصبغيات نفس العدد الذي يكون في بقية الخلايا . ومثل ذلك أن كل خلية من خلايا الجسم في توت العليق (الفرمبواز) تحتوي على ١٤ صبغيّ (أي مجموعتين كل منهما سبع) ، والكرنب ١٨ ، واللفت ٢٠ ، والحصان ٧٨ ، والانسان ٤٨ ، وهكذا .

ففي أثناء الانقسام الفتيلي ، ويقصد به علميًّا النمط الذي يجري عليه تولد الخلية والنواة في الأحياء ، تنقسم الصبغيات طوليًّا قسمين متساويين ، ثم تعود فتنتظم نفسها في مستوى واحد لتصبح صفحة مبسوطة عبر الخلية . وهذا هو المدرج الذي يظهر في الشكل (١) ، ويرى تحت المجهر اذا نظرت الى الخلية من طرف بعينه منها . (أما في الأشكال ٢ الى ٥ فتظهر في الخلايا منظورة جنبيًّا) . تأخذ الصبغيات المتولدة بعد ذلك في التحرك نحو طرفين متناظرين من الخليّة (شكل ٢) ، ومن ثمّ يتكوّن فاصل « أو جدار » بين تينكما المجموعتين المتوافقتين من الصّبغيات ، فينتج بذلك خليتين متولدتين تماثلان في كل شيء الخلية الأصلية التي عنها تنشأتا .

شكل (٣)

شكل (٢)

هذا المظهر الآلي للانقسام الفتيلي ، كان معروفاً منذ زمان مضى . ولكن المعلومات الجديدة قد مكنتنا من أن نفقه بصورة أكثر جلاء ودقة ، كيف أن التغيرات التي تصيب الخلية ، تؤدي الى مظاهر من النماء والتنشؤ شاذة لاسوية . وإنا لنرى الآن أن التنشؤ السويّ يتضمن سلسلة معقدة

من الأفعال الفوزيكيميائية تجري في داخل الخلية على نمط من الدقة والضبط يبلغ مبلغ الاعجاز المطلق، وفضلاً عن هذا ، فانه أصبح من الممكن أن تميز الحلقات النشوئية الأساسية في تلك السلسلة (١) وأن نردّ أي انحراف يصيب سلوكها السويّ ، الى حلقة معينة منها .

فالشواهد التي استجمعت حتى الآن ، تؤيد ، مثلاً ، نظرية أن أحد العوامل الجوهرية في التنشؤ السويّ هو مقدار المدد الذي يصل الخلية من الحامض النوويّ — وأن تولد الصِّبغيات وتركيب البروتين ، يتوقفان على هذه المادّة . فاذا ندر المدد الذي يصل الخلية من هذا الحامض النوويّ ، فان انقسام الخلية قد تتوانى نسبته ، كما ان التنشؤ قد يقف البتة . فاذا فاض المدد الذي يصل الخلية من الحامض النووي ، فان الانقسام الفتيلي تزداد نسبته تبعاً لذلك ، حتى لقد يبلغ مبلغاً يصبح عنده النماء أو التنشؤ شاذاً أو خبيثاً . وعلى الجملة نقول إن التنشؤ ، سويًّا أو غير سويّ ، إنما يتوقف على الكمية المقدورة التي تصل من الحامض النووي لتوليد الصِّبغيات .

إن الأحداث التي تقع في داخل الخلية إنما تقع بتوافق تام ، حتى ان أي خلل يصيب عاملاً من العوامل المحدثة لها ، لا بد من أن يفسد الميزان الذي يحتفظ بالحالة السوية فيها . فقد نشهد في الأورام الخبيثة تكاثف الحامض اللبني في داخل الخلايا ، والبحوث الحديثة التي تناولت فعل هذا الحامض في انقسام خلايا النبات ، قد أوحى للبحاث بأنه ربما كان ذا أثر في إحداث ذلك الطور التنكسي في تلك الأورام . إنه يحدث خللاً في الانقسام الفتيلي إذ يتدخل في توزيع الصبغيات توزيعاً منظماً في الخلايا المتولدة ، وتكون النتيجة حدوث اضطراب في تعيين عدد الصبغيات في الخلايا المتفرقة ، على نفس الصورة التي نشهدها في المدارج الأخيرة من نماء الأورام الخبيثة .

هذه البحوث لم تفدنا في أن نفقه طريقة الانقسام الخلوي على صورة أوضح فحسب ، بل كشفت لنا عن الأساليب التي بها نستطيع أن نحتكم فيها . وبينما نرى أن البحث في الكيميائيات التي تحد نماء الأورام لم ينجح حتى الآن غير نجاح جزئي ، فانه أدّى ، من ناحية أخرى ، إلى الكشف عن جواهر يمكن بها الاحتكام في انقسام الخلية في النبات بحيث يمكننا أن نحوّر بانتظام عدد الصبغيات .

---

(١) أي سلسلة الافعال الفوزيكيميائية .

أحد هذه الجواهر هو الكُلْشيسين (الزعفرين)، وكان الأستاذان «دَسْتَن ولِتز» من مدرسة الطب في بروكسل، أول من كشفا عن فعله. وهو قلواني سام يستخلص من نبات اسمه «زعفران الخريف»، وقد استعمل في الطب عقاراً لعلاج النقرس. والأشكال ٣ — ٥ تبين فعل هذا العقار في الصبغيات عند الانقسام الفتيلي. إن فعله ينحصر في أنه يمنع من تنسيق الصبغيات تنسيقاً منتظماً سويًّا في صفحة مبسوطة عبر الخلية، على ما نشاهد في الشكل (١)، وبدلاً من ذلك تتوزع الصبغيات في الخلية خبط عشواء على ما نشاهد في الشكل ٣، أما الصبغيات المتولدة من هذه وان كانت تنقسم وتنفصل على صورة سوية (الشكل ٤)، فانها ما دامت لم تنسق على صورة منتظمة فانها تنفصل في اتجاهات شاذة، وتختنق في تأليف مجموعتين متساويتين، على ما يشاهد في (الشكل ٢) وتحت تأثير هذه الحالات، لا يتكوّن جدار خلوي ليحدث بتكوّنه خليتان، وبذلك نحصل على خلية واحدة تتضمن من الصبغيات ضعف العدد السوي. فاذا عنينا بتنظيم استعمال هذا العقار بحيث لا يحدث هذا التضعيف في عدد الصبغيات غير مرّة واحدة في كل خلية بعينها، أمكن توليد نباتات تحمل خلاياها من الصبغيات ضعف العدد السوي في خلية عادية. وقد نجح كثير من علماء التوريث (التوريثيون) في أمريكا في استحداث نباتات تحمل خلاياها ضعف عدد الصبغيات في الحالة العادية، وقد سميت هذه النباتات «كثيرة الأنداد». ومنذ ذلك الحين تحسنت طريقة استعمال ذلك العقار، وقد كشف عن عقاقير أخرى لها من الأثر بحيث يمكن باستخدامها استحداث صور «كثيرة الأنداد» من أي نبات نختار.(١)

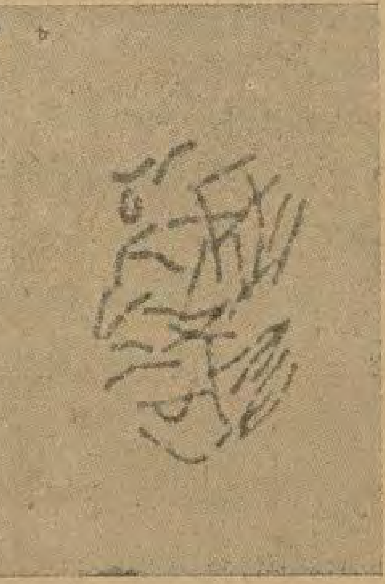

شكل (٥)

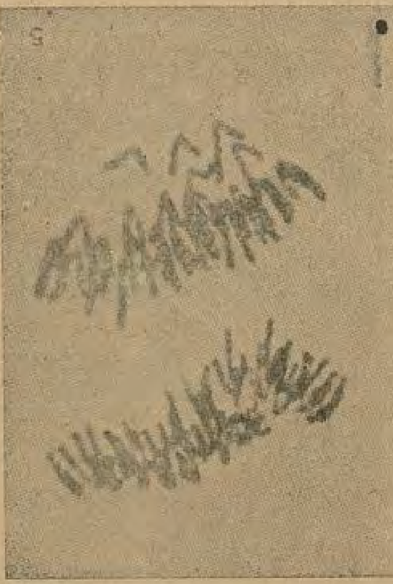

شكل (٤)

---

(١) ننشر في العدد القادم من المقتطف بقية هذا البحث الطريف وسنشرح فيه طريقة استعمال هذه العقاقير

مفردات اصطلاحية

Glossary in Alphabetical Order

الوحدات الناشطة	Active units
الذرة. الجوهر الفرد عند القدماء	Atom
زعفران الخريف	Autumn Crocus =Colchicum autumnale
علم الأحياء	Biology
الفحماويات	Carbohydrates
الصبغي — الصبغيات	Chromosome-s
الزعفرين : قلواني سام يستخرج من زعفران الخريف	Colchicine
التنكسي	Degenerative
النشوء — التطور — النماء	Development
التخلق	Differentiation
ثنائي الأنداد (في النبات)	Diploid
الانقسام	Division
العقار	Drug
البيضة أو البييضة	Egg
الجرثومة الخلوية الأنثوية	Female gem-cell
البييضة الملقحة	Fertilised Egg
المورثة — المورثات	Gene-s
التوريثي — التوريثيون	Geneticists
علم التوريث	Genetics
الخلية الجرثومية	Germ-cell
النقرس	Gout
الممكنات	Implications
الحامض اللبني	Lactic Acid
الجرثومة الخلوية الذكرية	Male germ-cell
الخبيث	Malignant
الأورام الخبيثة	,, tumours
الانقسام الفتيلي	Mitosis
النواة	Nucleus
الحامض النووي	Nucleic Acid
التنسيق — التنظيم	Orientation
الانفصال	Partition
الفوزيكيميائي	Physico-chemical
القلواني السام	Poisonous Alkaloid
حبيبة اللقح	Pollen Grain
كثير الأنداد (في النبات)	Polyploid
البروتين	Protein
الشبهعصوي — العصواني	Rod-like
المدد	Supply
ثلاثي الأنداد (في النبات)	Triploid
الجدار	Wall

الشلال

بعثت شجوك ألحاناً تهيج بها   غافي الشجون من المحزون نيرانا
ما كنت تقصرعن شكوى ترددها   في الصبح شجواً وفي الامساء ارنانا
وشهقة تلو أخرى رحت ترسلها   من صبوة فلأت الليل احزانا
لما شدوت بمزمار الأسى اصطفقت   لك القلوب وحلت الكون آذانا
وناحت الطير كالولهان أجهده   عبء الأسى فبكى وجداً وتحنانا

* * *

تساقط الماء من مجراك منهمراً   كدمعة هطلت سحًّا وتهتانا
أكان ماؤك هذا مزنة خلصت   لمن أتى وردك اللجي ظمآنا
أم دمعة الوجد تهديها لمبتئس   أتاك ينشد أحباباً وخلانا
ترغي وتزبد في مجراك من صلفٍ   معربداً وتجوب السهل سكرانا
وتقذف الماء أرماحاً مثقفة   ترمي بها كبد البيداء غضبانا
يبكي المتيّم ما هاج الحنين به   في ظلمة الليل أحباباً وأوطانا
وأنت تقضي الليالي دون ما سبب   كالمستهام شتيت اللب ولهانا

* * *

كأن ماءك ذوب النور منسكباً   من يانع الفجر اشراقاً واحسانا
يبدل النور صمت الليل أغنية   ترن في مسمع الجوزاء ألحانا
وأنت تخلق من جدب الصعيد اذا   لمست تربته الكأداء بستانا
كم من يدٍ لك عند الأرض صالحة   تفوح بالطيب كافوراً وريحانا
بسطت كفك للعافين من كرم   كأنك الغيث إغداقاً وتهتانا
وما مننت على عافٍ شفيت له   أواره أو رددت العمر انسانا
تفيض بالبذل والاحسان مستبقاً   سؤال كل لجوج رام احسانا
وغاية الجود بذل دون ما طلبٍ   يندي الجبين له ذلاً وأشجانا

دمشق   عدنان مردم بك

دماء الذبائح
غذاء للانسان صالح

(١) مسحوق دموي حيواني يقوي لذة الاغذية ويغني آكله عن تناول اللحوم الفادحة الاثمان (٢) طريقة تحويل دماء الحيوان الطازجة غذاء سائغاً للانسان (٣) كيف يتاح تموين الملايين من الناس المحتاجين يومياً ببروتينات اللحوم الفاخرة بدراهم معدودات (٤) منافع الاحماض الامينية المركبة في علاج الامراض الناجمة عن سوء التغذية (٥) استعمال مساحيق أكباد الحيوانات ورئاتها وكلياتها وأطحلتها وقلوبها وغددها المختلفة الطازجة غذاء ودواء للمرضى والناقهين والنساء الحوامل (٦) استعمال خلاصات المعى الاثنى عشري الحيواني ومسحوق الكاوة علاجاً لالتهاب القولون وتخفيف ضغط الدم :

سيظهر في السوق قريباً مسحوق لاطعم له ، محتوٍ على بروتينات[1] تعادل خمسة أمثال ما يوجد منها في أجود اللحوم ، يذاب في الحساء المعبأ في العلب ، فيزيده دسماً ، ويضاف الى طعام الفطور « بفتح الفاء » فيجعله ألذ طعماً ، ويخلط بالدقيق فيزخر إداماً ، ويُمزج بأعواد الحلوى فيصيرها أعظم مذاقاً .

وقد آن الأوان لتفريج أزمة اللحوم تفريجاً رائعاً ، بعد أن استحكمت حلقاتها في العالم قاطبة . إذ قام حديثاً عالم أمريكي من علماء الكيمياء الحيوية فجعل يوضح لأهل بلاده خاصة ، والعالم عامة ، كيف يتاح تموين ملايين الخلق ببروتينات اللحوم الفاخرة التي يفتقرون إليها كل يوم ، وذلك بسعر لا يزيد على نصف قرش لكل فرد ! .

وقال إن في وسعه تزويد الملأ بمقادير ضخمة من المنتجات اللحمية المشار إليها ، بمثل هذا الثمن الزهيد . ولكن مما يستوجب أشد الأسف ، كون الناس ، ما برحوا يشمئزون من مصدر البروتين اللحمي الذي يصفه لهم هذا المخترع العصري (مع كون ذلك المورد ، مصدراً يزخر بالعناصر الشحمية) لزعمهم أنه غير صالح لتغذية الانسان ، فينبذونه كأنه من سقط المتاع . ثم هم لا ينتفعون به إلا سماداً « للأطيان » . على حين يستطاع بالوسيلة التي اخترعت لأجله حديثاً ، تحويل ذلك السقط الكريه المحتقر ، مواد جديدة ،

---

[1] راجع مقالنا على (البروتينات المصنوعة) وذلك في باب الاخبار العلمية المنشورة في مقتطف فبراير ١٩٤٨

عجيبة ، تصلح كل الصلاحية، غذاء للبشر . وما من شك أن كل امرىء ، ممن في وسعهم ابتياع أحسن ما يروقهم من شرائح اللحم اللذيذ ، لايتردد في الاقبال على شراء هاتيك المنتجات اللحمية العتيدة ، وذلك لما تتميز به من المزايا الغذائية الفريدة في نوعها .

وقد تدهش إذ تعلم أن أول مصدر لهذا اللحم الجديد « هو الدم الحيواني الجسيد (١) » ذلك الذي تتخلف منه مقادير ضخمة في المصانع الغذائية الكبرى التي تقوم بتعبئة منتجاتها في العلب . وقد فطن علماء الكيمياء الحيوية ، منذ حقب مديدة ، الى كون هذا السائل الحيوي ، يغص بالبروتينات والفيتامينات ، وسائر العناصر الغذائية الضرورية للحياة البشرية . بيد أن الشعوب المتحضرة تشمئز من طعم الدم ، وتكره رائحته وشكله . وهذا فضلاً عن صعوبة وقايته من الفساد .

وسرُّ تحويل الدم العبيط (٢) ، غذاءً سائغاً ، يقوم بتجريده مما يحويه من الماء والمواد الشحمية تجريداً تامًّا والعالم الأمريكي الذي أسس هذه الصناعة الحديثة في مدينة مونتيشلّو في إقليم اللّينوي بالولايات المتحدة الأمريكية، سماها (منتجات ڤايوبين Viobin) وهي نتيجة مباحث مسهبة له في هذا الصدد .

وعندما يقوم هذا المخترع بتجفيف الدم ، ينقص وزنه الى مقدار ضئيل جدًّا من حجمه الأصلي . فيسهل عليه حينئذٍ تحويله مسحوقاً جافاً كل الجفاف ، خالياً من المواد الشحمية ، إذ يغدو مادة غريبة لم تكن معروفة من قبل .

وليس لهذه المادة الطريفة رائحة أو طعم . ويمكن تركها بلا تبريد وبغير تعبئة في العلب ، وذلك في مواضع مدفأة بالحرارة . أما منفعتها البيولوجية بصفة كونها طعاماً، فعظيمة جدًّا لأنها تظل في غضون طريقة صنعها من بدئها الى نهايتها ، في حالة جيدة ، وفي درجة حرارة تقل عما تقتضيها درجات حرارة الطبخ . فيصبح هذا الدم من الوجهة الغذائية ، قريباً من العبيط في خواصه الغذائية .

والدم الذي يدخر على هذا النمط ، سيعبد الطريق لانشاء صناعة لحمية حديثة لا يتسنى الآن تحديد مبلغها من الضخامة . ولا عجب ففي الحقب الأخيرة كان متوسط ما تخلف في مصانع كبس المأكولات في اقليم اللينوي ، من هذا الدم ، بليوناً ونصف بليون رطل في السنة . وهذه الكمية تكفي للحصول على مقدار يزيد على ١٧٠ بليون جرام من ذلك الدم المصنوع . وبما أن ٣٠ جراماً من هذه المادة تكفي لوجبة تقتضي ½ رطل من اللحم ، فالمورد السنوي السابق الذكر يكفي إذن لخمسة بلايين وستمائة مليون وجبة غذائية .

---

(١) اليابس (٢) العبيط من الدم الخالص الطري

وهذه الكمية كافية لاشباع أكثر من ١٥ مليوناً من الأنفس ، بالبروتينات اللحمية. وحسب المرء هنيهة يتناول فيها قلم رصاص وقصاصة ورق، فيتاح له إحصاء مبلغ ما يستطيع توفيره بهذه الوسيلة ، من نفقات غذائه اللحمي.

فاذا فرضنا أن ثمن خمسة أرطال من الدم العبيط ١٥ سنتاً ، وهذه الكمية تكفي لصنع رطل واحد من ذلك النتاج العظيم ، فتكون النفقات اللازمة لانتاج هذا المسحوق ، على نطاق واسع مضافاً اليها الربح المعقول ، وقدره ١٥ سنتاً أخرى للرطل ، فيصير ثمن الرطل منه ٣٠ سنتاً أي ستة قروش .

والدم المجفف المجرد من شحمه ينتج ٨٥ ٪ من البروتين . وهذا المقدار يزيد أكثر من خمس مرات ، على ما يحصل عليه الآكل ، من البروتين ، عند تناوله اللحم الفاخر. فالرطل من الدم المصنوع إذن ، يعدل خمسة أرطال من اللحم . فاذا قابلنا البروتين الموجود في ذينك النوعين ، بعضه ببعض ، تبين لنا أن اللحم في الدم المسحوق يساوي الرطل منه ستة سنتات .

ولما كانت الوجبة اليومية التي يحتاج اليها الآكل من هذه المادة الجديدة ، يجب أن تساوي ما يوجد من البروتين في $\frac{١}{٢}$ رطل لحم ، فيقتضي لذلك الغرض إعطاؤه $\frac{١}{١٥}$ من الرطل من الدم المصنوع . وهذا القدر لا يزيد ثمنه على سنتين أي نصف قرش . وهي قيمة زهيدة جداً ولكن لها أعظم الأهمية من الوجهة الاقتصادية . إذ لا يوجد في أنحاء العالم العصري أي بلد يستطيع المرء فيه التغذي باللحم يومياً بمثل هذا السعر الضئيل . ولهذا السبب يتوقع الخبراء كون هذه الطريقة الجديدة ستفتح أسواقاً كبيرة للبروتين اللحمي . وذلك بين الشعوب التي تعدُّ بعشرات الملايين ، الذين قلما يرون اللحم الآن . وليس رخص الثمن وحده هو العنصر المهم في هذا الموضوع . بل ثمة سبب آخر جوهري ، هو إمكان نقل هذا الغذاء الجديد ، بالسفن الى أرجاء العالم ، ثم خزنه وتوزيعه واستعماله بلا حاجة الى نفقات التبريد ، حيث يتاح بيعه في الأسواق ، في مناطق كبيرة حيث لا يتيسر الحصول على اللحوم.

وربَّ معترض يقول « ومَن ذا الذي سيشتري هذا الدم المسحوق ؟ ومن مَن الناس مثلاً يؤثر مسحوقاً دموياً جافاً تافه الطعم ، عادم الرائحة ، على شريحة لذيذة من لحم البقر ؟ فيجيب المخترع عن هذا الاعتراض بقوله « إن هذا الغذاء البروتيني الموضوع في علب من الورق المقوّى ، يكاد يشبه اللحم المسحوق سحقاً ناعماً ، المقلوّ « المحمر » المتبل بالتوابل المختلفة ، الذي اعتاد الأمريكان ، تناوله شطائر ، في كل مكان !! » .

أجل إن هذا الأمر لا يخلو من مجال رحب للتهكم ، فلنغض الطرف إذن عن المجون إذ الواقع أن هذه المواد اللحمية الجديدة تغاير شرائح اللحوم وضلوعها « الكستلية »

المنتقاة، من كل الوجوه . لأنها تختلف عنها كل الاختلاف في اللذة والطعم ، إذ هي لم تزد على كونها مسحوقاً تافه الطعم ، صالحاً للادخار بلا تبريد ، يكاد يشبه الدقيق بيد أنه يعد مادة مثلى للخلط بالأغذية الأخرى .

وهو الأمنية التي تنشدها ملايين من الأمريكيين ، بل مئات الملايين من الشعوب التعسة في سائر أقطار العالم ، لأنهم في أمس حاجة اليها لأنها غاصة بأفخر البروتينات

ولا مشاحة في القول ان أزمة الأحماض الأمينية قد أخذت تسود العالم ، وأن البروتينات اللحمية من أفخر مصادر الأحماض الأمينية . ولا جرم أن الأطباء يصفون في الظروف الحالية ، هذه الأحماض المركبة تركيباً متقناً لمرضاهم ، ولاسيما الذين تكون أمراضهم ناشئة عن سوء التغذية ، فينفقون في شرائها نفقات أكثر من أثمان اللحوم . على حين أن في وسعهم ، بهذه الوسيلة المستحدثة ، الحصول على تلك الأطعمة الحيوية بمقادير ضخمة بسعر يقل كثيراً عنه في اللحوم .

ولما كانت هذه المساحيق البروتينية تافهة الطعم ، فقد أصبحت أنفع مادة تضاف الى الأغذية اللذيذة التي تكون عناصرها الغذائية ضئيلة ، فتقويها ، فتمزج بالحساء المعبأ في العلب ، كما تضاف الى اللحوم والمواد الغذائية الأخرى المحفوظة المستعملة في الفطور ، وتخلط بالدقيق وأمثاله من منتجات المخابز وخاصة الحلوى مثل الفواكه المسكَّرة .

وقد عرض علماء الكيمياء في شركة ڤايوبين «عينة» من هذه (المسكرات اللحمية) إذ صنعوا أعواداً من السكر المبلور تحتوي على ١٠ ٪ من المساحيق البروتينية . فلم يطرأ تغيير على طعمها الأصلي المعتاد ، وان أصبحت تغص بالأحماض الأمينية فضلاً عن صيرورتها تكاد تكون مغذية كأطيب ضلوع الحيوان !

وتوجد عشرات من الأغذية الأخرى مشهورة بلذة طعومها ولكن تنقصها العناصر الغذائية الضرورية ، فيقبل الناس على شرائها ، مخدوعين بالاعلانات المشفوعة بها التي تحمل هذه العبارة (مقواة باللحم المحض) ويؤسفنا تمادي مروجيها في نشر أمثال هذه المزاعم . أما هذه المنتجات العتيدة ، فيتوقع العارفون كونها ستفضي الى تقدم جليل الشأن ، في التغذية العامة . ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن شركة ڤايوبين السالفة الذكر التي تقوم بصنع مسحوق الدم ، تنتج تسعة مساحيق لحمية أخرى ، لم يكن لها وجود قبلاً . وهي تصنع من أكباد الحيوانات ورئاتها وكلياتها وأطحلتها وقلوبها وغددها المختلفة الطازجة . وهذه المساحيق جميعها هي حقيقة نسج تلك الأعضاء البدنية للحيوانات نفسها مجردة من مياهها وشحومها .

ولكن التفصيلات الخاصة بطريقة صنعها ما زالت سرية. وكل ما عرف في شأنها، كونها تشمل وسائل هندسية مستحدثة. وبما أن هذه المنتجات يختلف بعضها عن بعض اختلافاً أساسيًّا، فتقتضي من الباحثين فيها عناية فائقة. إذ المعروف للعلماء من أزمان مديدة أن النسج الحيوانية الخالصة الثابتة، تعد من أفضل المواد الغذائية، فمن الميسور اذاً الوقوف على كنه هذا الاعتقاد.

وفي هذا الصدد يقول علماء الكيمياء الحيوية، إن هذه المساحيق المصنوعة من الأعضاء البدنية الحيوانية، تحضر بطريقة تحول دون استهدافها لهضم بعضها (١) بعضاً وتقيها من عوامل الفساد في أثناء التصرف في نسجها. وذلك من دون الاستعانة بالمواد الواقية، قصد صونها. فلا يضاف اليها شيء البتة مثل الكحول أو الأسيتون. وانما تجرد من مياهها وشحومها فتظل على حالها، مساحيق طازجة مستوعبة لفيتاميناتها وأحماضها الأمينية الأصلية بلا أي تغيير كان.

فتنزع الكبد مثلاً طازجة من الذبائح ثم تجفف وتسحق. وكل أربعة أرطال ونصف رطل منها، وهي طازجة تنتج رطلاً واحداً من المسحوق الكبدي. فيصير هذا المسحوق إذن مصدراً مركزاً للعناصر الغذائية التي تحويها الكبد الطازجة. وهي العناصر التي تشمل فيتامينات (ب) B والبيوتين والكولين وفيتامين (ث) C

وقد تبين أن الناقهين والمرضى المحرومين من التغذية الكافية لأجسامهم، يستطيبون جداً، مسحوق الكبد، لخلوه كل الخلو من الرائحة البغيضة المألوفة. ويتاح مزج هذا المسحوق بالأغذية الأخرى، فيتيسر اعطاؤه للسيدات الحوامل بصفة كونه حلوى مسكّرة مضادّة لفقر دمائهنّ. ويمكن أيضاً مزجه بالسوائل التي تصنع قصد تقوية الشهوة للطعام. وكذلك جعله أقراصاً دوائية كبدية خالية من الرائحة الممقوتة، وذلك بلا واسطة.

وحينئذٍ يسهل على أفواج كبيرة من الشعوب المحرومة حالياً من التغذية بالكبد، لنفورهم من رائحتها الفوّاحة التي تتقزز منها نفوسهم، تناول هذه المركبات على شكل أقراص أو غيرها من المستحضرات الكبدية كملحق لغذائهم المألوف.

ويسوغ صنع مزيج من هذه المساحيق الجديدة المستخرجة، من الأعضاء البدنية الحيوانية، يصلح ملحقاً للمأكولات المعتادة. لأن مساحيق الكبد والكلية والقلب والطحال (٢) والمعدة والدم جميعها، تمدّ الانسان بمقدار كبير من البروتينات اللحمية

---

(١) ومثال ذلك — تفكك الخلية بتأثير الاحماض والخمائر التي تنتجها انتاجاً ذاتياً

(٢) الطحال — بكسر الطاء أما الطحال بضم الطاء فهو داء يصيب الطحال.

والفيتامينات والخمائر العضوية وسائر العناصر الحيوية . أما مساحيق البنكرياس والغدة النخامية والمعدة والمعى الاثنى عشري ، والكظرين فيستعمل كل منها على حدته ، على الأرجح ، لما يستوعبه كل عضو فيها، من الخمائر العضوية والهرمونات[1] الفعّالة .

ويعنُّ لنا أن بعض هذه المركبات المستحدثة ، يحتوي على عناصر كيميائية حيوية ، ما زالت علينا خفية . ومنها المعى الاثنا عشري المجفف المجرد من الشحم فانه يحتوي على خمسة هرمونات وست خمائر عضوية . ومن تلك الهرمونات واحدٌ اسمه انترجاسترون Entergastron زعم العلماء منذ سنوات أنه يؤثر تأثيراً صحيًّا فعالاً في الجهاز الهضمي .

وأذاع أطباء سويسرا أنه أسفر لديهم عن نجاح باهر في علاج القرح المعدية . وجاء في أحدث الأنباء من انكلترا أن الطبيبين الدكتور أ . م . جيل الانكليزي وزميله الدكتور ر . إرليخ الأمريكي ، قد استعملا خلاصات المعى الاثني عشري الحيواني في علاج التهاب القولون المقرّح .

وفي سنة ١٩٤٧ شرع مستشفى مؤسسة پرمانت في مدينة أوكلند باقليم كليفورنيا في استعمال الاثني عشري بأجمعه لعلاج القرح المعدية . ثم وضع المختصون أكثر من ١٥٠ مريضاً تحت العلاج، بغية الدراسة والرقابة ، حتى إذا انقضت عليهم سبعة أشهر ، تسنى لهم الوقوف على نتيجة هذه المعالجة الجديدة في تقدم مرضاهم صحيًّا .

فمن الميسور إذن كل اليسر تخفيف وطأة أسوأ أمراض المعدة ، بهذه الوسيلة . وربما يغدو في الامكان أيضاً منع بعض أخطر الأمراض عينها . وذلك بتناول الأطعمة الشهية المحتوية أصلاً على الأنواع الجديدة من المواد (الطبيعية) المشار اليها .

وربما ينتج عن هذا البحث ، جواز أكل أعضاء الحيوان الأخرى مسحوقة ، كالكلوة مثلاً إذ هي تحتوي على مادة الرنين renin وهي خلاصتها المشهورة بكونها تضعف من ارتفاع ضغط الدم ، قصد الانتفاع بنتائجها العلاجية . وقصارى القول إنه ليس في موضوع المخترعات الغذائية الحديثة شيء من النظريات ، عسير التحقيق . إذ هي طرق صناعية جديدة يسيرة الادراك . لأننا ما دمنا نستهلك بروتينات اللحوم الطازجة استهلاكاً يفوق التقدير ، فلا يبعد أن يحل زمن قريب جداً يتاح فيه لعلماء الكيمياء الحيوية تحويل هذا الغذاء لحماً غضًّا ، يقدم على المائدة . وسيكون في وسعهم كذلك تقديم «عينة» من اللحم الجديد يوميًّا لكل امرىء محروم من البروتين ، بثمن يقل عن عشرة ريالات طيلة العام .

عوض جبري

---

[1] (١) الهرمونات : هي المفرزات الداخلية التي تفرز في الدم من الغدد الصم فتنبه الاعضاء الباطنية الاخرى

الشخصية

الموسيقية المصرية

لا شبهة في أن الموسيقى ركن من أركان النهضة . ورحم الله من ربط نهضة أمة من الأمم بنهضة الفن فيها . وهـذا يصدق على مصر كما يصدق على غيرها ، فالموسيقى صاحبت نهضة البلاد في كل عصر من عصورها .

ففي عصر اسماعيل بدأت تظهر نهضة غنية بفنانيها وقادها المرحوم عبده الحمولي الذي ألحقه اسماعيل العظيم بحاشيته واصطحبـه في رحلته الى الاستانة حيث اجتمع هنـاك بالموسيقيين الأتراك فأخذ عنهم أنغاماً طريفة وتعلم منهم ضروباً جديدة في التلحين والتنغيم وعن الحمولي أخذ الموسيقيون المصريون وقتئذٍ ، وطبعوا الأسلوب التركي بالأسلوب المصري . وبعده ظهرت شخصيات موسيقية مصرية سارت على طريقته ونهجه .

وحافظت موسيقى عبده الحمولي أو بعبارة أدق مدرسته على أساس الموسيقى الشرقية أي « التخت » وطرائقه المقررة . ولم تكن للموسيقى المسرحية أي أثر اللهمّ إلاّ إذا اعتبرنا ما كان ينشد خلال الفصول أو في أثنائها في فرقتي أبي خليل القبـاني وسليمان القرداحي موسيقى مسرحية. ثم ظهر الشيخ سلامه حجازي وكان لصوته القوي أعظم الأثر في اجتذاب الجمهور اليه وفي اقباله على الموسيقى المسرحيـة ، إن جاز لنـا أن ندعوها كذلك مع التجاوز الكبير ، إذ أن الموسيقى المسرحية وقتئـذ كانت عبارة عن موسيقى تخت ليس إلاّ ، إلاّ أنها بدلاً من أن تعزف على العود والقانون والناي أصبحت تعزف على البيانو والفلوت والترمبون ، أما تصوير المعاني وإعطاء الألفاظ ما يناسبها من الموسيقى فكان غير معروف تقريباً .

ولقد كانت عناية المغفور له الخديوي اسماعيل بالموسيقى وتشجيعه الموسيقيين ما هيأ لها التقدم ولـكن في حدود خاصة هي تأثرها بأسلوب الموسيقى التركية أولاً وبأوضاع التخت ثانياً، ولأن الفن كان يرنو الى ارضاء الطبقة الخاصة ثالثاً .

وإذا كانت الشخصية المصرية قد ظهرت إبان مقاومة الاحتلال الفرنسي وبرزت في عصر محمد علي الكبير وازدهرت في عصر اسماعيل ، فانها اكتملت في عصر الملك فؤاد رحمه الله وجلالة الفاروق العظيم .

وهذه الشخصية المصرية بدأ أثرها واضحاً في الموسيقى منذ عام ١٩١٨ حتى الآن . وتكوّنت أسسها وتكاملت مقوماتها في سني الثورة من عام ١٩١٨ — ١٩٢٣ . وعاون على استكمال أسبابها ظهور فنان عظيم هو المرحوم سيد درويش الذي تأثرت موسيقاه بالنهضة الوطنية تأثراً بليغاً .

والواقع أنه في الفترة ١٩١٨ وما بعدها ، ظهرت القومية المصرية جارفة في كل جانب من جوانب الحياة المصرية . وظهر روّاد مصريون في كل فنّ وعلم وعمل .

ولظهور سيد درويش في عالم الموسيقى أهمية قصوى في خلق الشخصية الموسيقية المصرية الصميمة . الأمر الذي يحدو بي الى أن أعرض المامة عاجلة بفن سيد درويش من ناحية صبغته القومية .

لم يحدث سيد درويش في موسيقى التخت ما أحدثه من تغيير وانقلاب عظيم في موسيقى المسرح ، تغيير يبلغ حدّ الخلق والانشاء . فالشيخ سيد إذاً أبقى على روح التخت التقليدية ولكنه وضع أساس التجديد فيه ، هذا التجديد الذي سار رويداً حتى أصبح التخت على ما هو عليه الآن من سيطرة المنولوج والاكثار من عنصر الآلات الموسيقية الصامتة والاتجاه نحو الألحان المعبرة ، أي على نحو ما هو متبع في المسرح ولكن في نطاق محدود.

أما في المسرح فقد ظهر نبوغ سيد درويش الفطري وبدت عبقريته الفذّة فهو المجدد الحقيقي الذي خلق الموسيقى المسرحية المصرية خلقاً ، وتمتاز ألحان سيد درويش ويتسم فنه على العموم بميزات كثيرة أهمها :-

﴿ أولا — التنوع ﴾ فانك لتسمع ألحان الشيخ سيد على كثرتها وعددها الوفير فلا تلمح ثمة تشابهاً بينها . وهذه الميزة جليلة لسيد درويش فاننا لنسمع الآن ألحاناً هي في الواقع عبارة عن ألحان قديمة مع تغيير الألفاظ وعبارات موسيقية وردت في ألحان معروفة وعلى تنوع ألحان الشيخ سيد وعدم تشابهها فان لها طابعاً خاصًّا وذلك بسبب قوّة شخصية الشيخ سيد .

﴿ ثانياً — القوة ﴾ وتلك من ميزات الشيخ سيد النادرة . فانك لتتبين من عبارات ألحانه سواء الغرامية أم الهزلية أم الوطنية تلك القوة التي تهز المشاعر وتملأ النفوس طرباً

مصدرة الحياة والقوة . ولقد لحن سيد درويش عدداً عظيماً من الأناشيد والألحان الوطنية أخصها بالذكر . قوم يا مصري ، بلادي بلادي ، لك حبي وفؤادي، وبني مصر مكانكمو تهيا. وغير هذا من القطع التي اشتملت عليها كثير من رواياته المسرحية الغنائية مثل ألحان اليوم يومك يا جنود ، واحنا الجنود زي الأسود ، وأحسن جيوش في الأمم جيوشنا . الخ .

﴿ ثالثاً — التلاؤم مع الذوق المصري ﴾ ولست أعني بهذا أن سيد درويش لم يتأثر بالموسيقى الغربية . فقد تأثر بها كثيراً إلاّ أنه هضمها هضماً كافياً فأخرج للناس هذه الموسيقى الجميلة الجامعة لحنان الموسيقى الشرقية وقوّة الغربية . ولقد كان الشيخ سيد يقدر الموسيقى الغربية حق قدرها كلفاً بسماعها ، حتى لقد حاول في كثير من الأحوال مزج الفنين فكانت قوّة فنه تمكنه من صياغة ما يريد فنّاً شرقيّاً مصريّاً لا أثر فيه للعجمة . ومن مفاخر سيد درويش نقاء حسه وسرعة تأثره بما يسمعه من موسيقى ولكنه احتفظ في جميع ألحانه بطابعه العربي المصري وشخصيته القوية .

﴿ رابعاً — مراعاة المعنى والوسط ﴾ تلك هي أهم ميزات موسيقى الشيخ سيد وأعظمها وأروعها ، وهي التي أثارت اهتمام الناس وإعجاب النقاد ، وجعلته بحق خالق الموسيقى المسرحية المصرية . ولقد نجح الشيخ سيد في هذا المضمار نجاحاً يثير الإعجاب حقاً . . . ولا شبهة في أن سماع بعض مقطوعات سيد درويش التي تزخر بها موسيقاه المسرحية تجعل المرء يدرك الى أي حد بعيد وصل رحمه الله الى جعل الموسيقى والمعنى متلازمين متآلفين، والى ربط الموسيقى باللفظ حتى كأن الموسيقى خلقت ، له وكأنه خلق لها . ولقد كان سيد درويش يبذل في سبيل اخراج المعنى اللفظي في ثوب موسيقي جهداً جباراً . ولم يكن يتعمل التطريب ، بل كان مقصده الأسمى ابراز المعنى في حلة موسيقية . أما الطرب فيأتي متى ساير روح الموسيقى والشعر .

فالشيخ سيد إذاً قدم الى المسرح الغنائي ألواناً كان يجهلها من قبل هي من صميم الحياة المصرية الأصيلة . إذ كان يختلط بكافة طبقات الشعب فأمكنه أن يضع لكل منها ما يناسبها من النغم . وكان يحيط نفسه بالجوّ المناسب للقطعة التي يلحنها . ومن ثمّ لم تعرف الموسيقى في مصر حتى اليوم موسيقياً يمكننا أن نصفه بالشعبي بحق ، خلاف سيد

درويش . وكان سيد درويش ينشد السهولة والتيسير في ألحانه الشعبية . وكان يقول إن خير الألحان ، ما كان طبيعيًا بعيداً عن التكلف، لذلك كان شديد الاعجاب بالألحان التي ينظمها ويلحنها الشعب نفسه . وسيد درويش في تعبيره وتصويره لبلاده لا يقل في هذا السبيل عن أي موسيقي عالمي ، وهو ان اختلف مع غيره من الموسيقيين العالميين فالاختلاف في الاطار الذي يحيط بالصورة اللحنية ، أما الصورة نفسها فواحدة وقوامها صدق التعبير والتصوير .

اقتبس سيد درويش موسيقاه من روح الشعب المصري نفسه . ولقد تأثر — كما تأثر غيره من الفنانين والأدباء والساسة بثورة عام ١٩١٩ ، وما بدا فيها من قوة القومية المصرية الصميمة ، فلجأ الى الشعب يستوحيه ألحانه ، وكانت نهضة المسرح الغنائي مما أسعفه في ابراز مواهبه . إذ انطلق يلحن لكل مناسبة ولكل معنى ولكل فكرة ، دون أن يتقيد بقيود التخت الغنائي وأوضاعه القائمة على الموسيقى الغرامية وعلى عدد محدود من الآلات الموسيقية .

فمن هذه الفترة أي ١٩١٨ — ١٩٢٣ بدا ظهور الموسيقى المصرية الأصيلة التي تستمد كيانها وقوتها من حيوية الشعب المصري ويقظته .

وكان لزاماً أن تصاحب النهضة في التلحين نهضة أخرى في التنظيم العلمي للموسيقى . وهذا ما أولاه عنايته الكريمة المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول . ففي عام ١٩٣٢ افتتح رحمه الله المؤتمر الأول للموسيقى الشرقية بغية تنظيم الموسيقى الشرقية ووضع قواعد ثابتة للسلم الموسيقي . ولم ينجح المؤتمر في مهمته الأصلية بسبب اختلاف آراء مندوبي البلاد الممثلة في المؤتمر على نسبة صوت الربع في السلم الموسيقي الشرقي، اختلاف مرجعه تأثر كل مندوب بموسيقى بلاده . وفي رأيي أنه يحسن وضع نسبة لربع الصوت تقرها البيئات المصرية وحدها . ولا ريب أن الموسيقيين في البلاد العربية سيتبعوننا في هذا المضمار لتأثرهم الشديد بالموسيقى المصرية في الوقت الحاضر . ولتثبيت السلم الموسيقي أهمية قصوى في ارتقاء الموسيقى الشرقية .

والواقع انه كان لزاماً أن تتطور الموسيقى المسرحية المصرية تطورها الطبيعي وينتهي

المطاف بها الى نشوء الأوبرا (كما حدث للموسيقى الغربية من قبل) بيد أن وفاة سيد درويش عام ١٩٢٣ حالت دون ذلك ، فما لبثت الموسيقى المسرحية أن اضمحلت إذ لم تجد من الملحنين الآخرين ما يغذيها من الألحان المسرحية الحقة ، يضاف الى ذلك عامل هام هو طغيان السينما على الفن المسرحي ، وانه وان أصبح الغناء ولا سيما الوارد في الأفلام والتمثيليات الموسيقية الصغيرة قد أصبح أقرب الى الصدق في التعبير إلاّ أنه يلاحظ شدة الاقتباس من الموسيقى الغربية ، ولعلّ هذا مرجعه ضعف الشخصية الموسيقية عند كثير من الملحنين من جهة ، والى الاقبال على الانتاج الموسيقي على نطاق واسع جداً لرواج الأفلام والراديو .

وأيًّا ما كان الحال فان الشخصية الموسيقية المصرية التي خلقتها ثورة ١٩١٩ وكان ترجمانها سيد درويش قد ثبتت أركانها وتوطدت دعائمها ، فأصبح لها لونها المميز وطابعها الخاص . ولقد بلغ من قوتها أن أثرت على الموسيقى في أنحاء الشرقين الأوسط والأدنى ولا سيما في البلاد العربية حيث يكاد الملحنون يجمعون على احتذاء الأسلوب المصري في التلحين والغناء ، وهكذا فرضت مصر شخصيتها الموسيقية القوية على الأمم المحيطة بها .

وللنهضة الموسيقية الحديثة في مصر مظهران فريدان :

الأول — انشاء المعاهد الموسيقية على النسق العلمي وأخص بالذكر معهد الموسيقى المسرحية وادخال الموسيقى مادة أساسية في المدارس . وهذا ولا ريب له أثره في مقاومة الأمية الموسيقية التي ما برحت عائقاً لتقدم الموسيقى المصرية على أسس علمية وفنية سليمة

الثاني — اعلاء شأن الفنان. وتلك هي أحدث مآثر جلالة الفاروق العديدة على أمته وبلاده . ففي عهد جلالته السعيد أنعم على عدد كبير من الفنانين بالأوسمة والألقاب . وبذلك أصبح للفنان في مصر كرامة واعتبار لا يقلان عما هو معروف في أرقى بلاد العالم . ولم يعد ينظر الى الفنان في مصر على أنه ماجن من المجان ، ولكن على أنه صاحب رسالة في خدمة الوطن والمجتمع لا تقل عن رسالة غيره من المبرزون في العلوم والآداب والسياسة .

نسأل الله للفن مزيداً من رفعة الشأن في ظل مولانا الفاروق .

فؤاد محمد شبل

الغلال المعمرة

كل الغلال نباتات أو بالحري حشائش سنوية . ونقصد بالغلال الحشائش التي تنتج غلة من الحنطة أو الشعير أو الشوفان أو الدخن وما إليها، فدلالة اللفظ واسعة جداً، قد تدل على فصائل مختلفة ، بله أجناس وأنواع .

اما انها سنوية فمعناه انها تزرع كل سنة ، ولا تعمر سنتين أو أكثر . وقد استطاع عالم فذّ من علماء الاقادمية الروسية أن يهجّن ضروباً من الغلال بأن أشَّبَها مع نباتات بريّة قريبة منها في الفصيلة أو الجنس ، فأخرج صوراً من الغلال معمرةً، إذا زرعت أغلّت أكثر من محصولين في زرعة واحدة ، وزادت غلتها حتى لقد تبلغ عشرة أضعاف الضروب المزروعة.

ولقد يظهر مما سننقل هنا عن هذا الموضوع ان ذلك الاقادمي الروسي ، نيقولاي تسيتسين ، قد بنى فكرته الاساسية على موضوعين علميين تناولهما العلامة داروين بالبحث في كتابه « أصل الأنواع » هما « التناحر على الحياة » و « التأشيب » أو « التنغيل » كما ترجمت الاصلاح في ترجمتي العربية لأصل الأنواع .

فمنذ خمس عشرة سنة بمقربة من « جيفنت » حيث يوجد مزرعة حكومية في شمالي القوقاس ، حصل الباحثون على أول ضرب من الغلال المؤشبة أو المنغلة ، بتأشيب ضرب من الحنطة بحشيشة بريّة تسمى النجير أو الخافور ، وتعرف في مصر باسم « عرق النجيل » وكان هذا النجاح بداية عمل عظيم قام به ذلك الأقادمي الفذ ، اذ استطاع أن يولّد ضروباً مؤشبة بتخليط نباتات مزروعة بضروب برية .

في خلال آلاف مؤلفة من السنين ظلّ الانسان ينشىء نباتات يزرعها ، مستجمعاً فيها من الصفات والخصائص ما يكون ذا قيمة للانسان وحده ، ولا غناء فيه للنبات ذاته . وتبعاً لذلك ضعفت النباتات المزروعة وأصبحت من العجز بحيث لا تستطيع أن تحيا حياة مستقلة بعيدة عن عناية الانسان . أما تطور النباتات البرية وتنشئها فقد اختلف عن ذلك كل الاختلاف . فقد مرّ بهذه النباتات أحقاب تلو أحقاب والطبيعة تنمي فيها تلك الخصائص التي ساعدتها على التفوق في معمعة التناحر على الحياة والاحتفاظ بالذات .

فالغرض من البحوث التي قام بها ذلك الأقادمي النابه هو الانتفاع بتلك الخصيات

المتناقضة والصفات المتباينة التي اختصت بها تلك النباتات المتآصرة ، أي المتصلة النسب .

ومن أجل أن يصل الى هذا الغرض عمد إلى الخلط أو المزج بطريقة التأشيب أو التنغيل ، بين تلك الخصيات التي تكون في الحنطة ، وحشيشة النجير أو الخافور (عرق النجيل في مصر) فأخرج بذلك صوراً جديدة ، بل أنواعاً من النباتات الزراعية المفيدة . وكانت هذه النتيجة العملية ، هي الغرض الذي عمل الأستاذ نيقولاي في سبيل الوصول اليه ، وقد وصل فعلاً الى نتائج ايجابية ذات بال .

استكشف الأستاذ نيقولاي خمسة ضروب من النجير يمكن تهجينها أو تخليطها مع أية شئت من ضروب الحنطة الزراعية ، بل يمكن تخليطها أيضاً مع الجويدار ، ومع نوع معين من الحنطة البرية اسمها العلمي Triticum aegilops . فكان من نتائج هذا التأشيب أو التنغيل وما تبعه من الجري على قواعد الانتخاب الصناعي ، استحداث عدد من ضروب جديدة من الحنطة بعضها شتائي وبعضها صيفي . وبمقابلة هذه الضروب بالحنطة المعروفة نجد أن هذه الضروب المستحدثة لها خصيات معقدة ذات شأن كبير في الزراعة .

ونخص بالذكر منها الحنطة المعمّرة — وهي ضرب من الحنطة الزراعية استحدثت بالتهجين من الحنطة العادية والنجير . استحدثت هذه الحنطة منذ عشر سنوات خلونَ — فلما زرعت غلت ثلاثة محصولات أو أربعةً . ولكن لما ظهر فيها من نقائص أمسك المجربون عن التوسع في زراعتها . وقد استبدلت بضروب أخر يمكن أن يوصى بزراعتها في كل منطقة من مناطق الأرض الزراعية .

ولقد انصرف الأستاذ نيقولاي الآن الى معالجة ضروب من الحنطة المعمرة ، حتى يفوز بصنوف منها نادرة القيمة عظيمة الفائدة وفيرة الغلة .

وفي خلال الثلاث السنوات المنصرمة نال الأستاذ نيقولاي نصراً جديداً لا نظير له في تاريخ الانتاج الزراعي . فقد استطاع أن يخضع الحنطة والشعير لقبول التأشب مع نبات برّي تابع لجنس اليم . ويعرف هذا النبات في بريطانيا باسم حشيشة اليم . والضروب التي حصل عليها بهذا التأشيب (حنطة اليم وشعير اليم) قد بلغت أهميتها من الحيثية الزراعية أبعد مبلغ . فقد أدت التجارب الى زراعة ضروب تحوي السنبلة الواحدة من سنابلها من ٢٠٠ الى ٣٠٠ حبة أو يزيد ، بدلاً من ٣٠ الى اربعين في الضروب المعروفة . وسوف يؤدي ذلك الى زيادة الغلات أضعافاً مضاعفة . كذلك يمكن الانتفاع بالأرض المهملة والأرض البور . ذلك بأن هذه الضروب تنبت وتغل في مثل هذه الأرضين ، كما لو زرعت في أرض شديدة الخصب جيدة التربة .

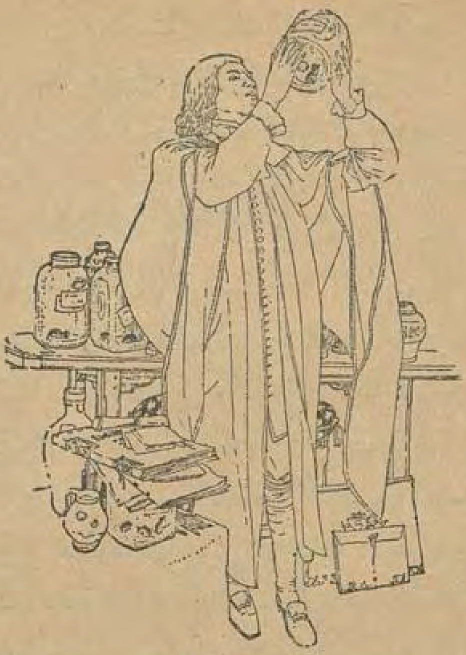

يوحنا مايو

John Mayow

الهواء ضروري لاشعال النار ، كما هو ضروري للاحتفاظ بالحياة ، وبالرغم من أن هذه الحقيقة كانت معروفة آلافاً من السنين ، فقد كان من حظ طبيب بريطاني أغرم بالكيمياء ان يكون اول من يبرهن بتجارب عملية ، على ان جزءاً من الهواء هو الذي تقوم به الحياة ، وان هنالك مشابهة كبيرة بين التنفس والاحتراق

ذلك الجزء من الهواء الذي تقوم به الحياة ، والذي نعرف اليوم أنه الاكسجين سماه يوحنا مايو « الخلاصة النتروهوائية » nitro-aerial spirit

وضع فأراً في إناء وأغلقه برق من أدم ، فرأى بعد قليل ان الرق أخذ يتقعر متقلصاً نحو داخل الاناء ، وان السبب الغالب في ذلك هو انقباض الهواء الذي في الاناء ، عند ما يستهلك الفأر كميات من الاكسجين

كذلك لاحظ ان فأراً في أناء محكم الغلق ، يعيش زمناً أطول من الزمن الذي يحياه فأر آخر في مثل ذلك الاناء ومعه شمعة مشتعلة ، لان كلا من الفأر والشمعة يستهلكان نفس العنصر الذي في الهواء

وبالرغم من أن « مايو » قد وصل الى مستكشفات كيميائية ذات بال ، فان شهرته تقوم على أنه مجرب عملي نافذ البصيرة

ولد في لندن سنة ١٦٤٣ ، والتحق بكلية « ودهام » في جامعة اكسفورد سنة ١٦٥٨ ومات في « باث » في سن الخامسة بعد الثلاثين ، بعد انتخابه زميلا في الجمعية الملكية بعهد قصير

ويعتبر مايو حلقة في سلسلة الافذاذ الذين بحثوا سر الاحتراق . وهو سر كان استجلاؤه نقطة تحول عظمى في تاريخ الكيمياء

الأسكوريال

El Escorial

على بضع غلوات الى الشمال والغرب من « مدريد » تقوم تلك الجبال الشامخة في وادي الرامة ، ذلك الوادي الذي تنتهي عنده سلسلة الجبال الفاصلة بين قشطالة القديمة ، وقشطالة الحديثة . انه لصقع من أصقاع الأرض عجيب التكوين ، فهو أجرد موحش ، يكاد يكون خلواً من الزروع ، ويلوح كأنه بمعزل عن بقية العالم .

إن لتلك الجبال أسرارها . فان كثيراً من السياح قد طوّفوا بأنحائها من غير أن يصلوا الى غاية ، وقدّر لهم أن يغيبوا في النهاية في مهاويها الأخيضرات الغبر . ناهيك بما نسج الخيال عن بركها العميقة البعيدة الأغوار ، ومخلوقاتها العجيبة والهول المخيفة ، وأفاعيها الضخام التي تبلغ من ثقل الجثة مبلغ دوحات الصنوبر الباسقة .

عند قدمي وادي الرامة ، الذي تهب عليه العواصف الهوج من خلال الجبال المحيطة به ، تقع على ذلك الأثر الذي شيدته العبقرية البشرية . تجد ذلك البناء المنفرد المعزول عن عالم اللغب والضجيج ، وكأنه العجيبة الثامنة من عجائب الدنيا . وهو ككل ما تخلق العبقرية رهن بحكمين ، فالى جانب الذين يعتقدون انه عجيبة الدنيا الثامنة ، أولئك الذين يرمونه بأنه مثال الوحشة ، وانه صحراء مجرودة من الصوان الصلد ، وانه كابوس صبّ في قالب هندسي ، وان ما فيه من إثارات الفن ، قد جاءت بلا طعم ولا ذوق ولا حياة .

اسمه الكامل «إل سيتيو دي‌سان لورنزو إل ريال» El Sitio de San Lorenzo el Real ولكنه معروف عند الكافة باسم « الاسكوريال » ، نسبة الى دسكرة قريبة منه تسمى بذلك الاسم . أما إذا أردنا أن نعرف شيئاً من تاريخه وأصله ، فلا بدّ لنا من أن نعود رجعاً أربعة قرون من الزمان الى الوراء ، الى عصر فيليب الثاني ملك أسبانيا ، ذلك الملك الكفء ذو الآبلية الفائقة ، الذي غازلت أوهامه كثيراً من الأعمال الرائعة ، في عصر

قلّت فيه الروائع ، وقلت فيه العقول التي تداعبها روائع الحياة .

يفكر الناس في هذا الملك اذا فكروا ، فتدور في عقولهم أنه صاحب « الأرمادا » الاسبانية، ذلك الأسطول الحربي العجيب الذي أراد أن يغزو به انجلترا ويستذلها، فقضى عليه قليل من الشجاعة وكثيرٌ من غضب الطبيعة ، فهوى في اليمّ كسير الجناح ، وأنقذت الطبيعة بريطانيا . يذكره الناس فيخيل اليهم أنه صانع تلك « الرائعة» الحربية التي تمثل الفشل يبرز من خلال الأمل الكامل في النجاح . ولكنهم لا يذكرون أنه صاحب الرائعة الخالدة : « الأسكوريال » .

لا حاجة بنا أن ندلف في مطاوي السياسة في القرن السادس عشر . ولكن يكفي أن نذكر أنه في سنة ١٥٥٧ كان الملك فيليب الثاني الاسباني في حرب مع فرنسا ، وانه في العاشر من شهر اغسطس من تلك السنة ، وهو يوم القديس « لورنس » : St. Laurence أحرز نصراً مبيناً في موقعة « سان كنتان» St. Quentin . لقد كان فيليب من غلاة الكثلكة ، ولكنه اضطرّ في أثناء تلك الوقعة أن يضرب بقنابل مدافعه كنيسة مقامة للقديس « لورنس » وأن يهدمها فيتركها أنقاضاً . وبالرغم من أنه انتصر ،ترك ذلك العمل في نفسه أثراً من التبكيت زلزلت له نفسه ، وحزن له قلبه . وفي ساحة المعركة قطع على نفسه عهداً أن يكفّر عن هذه السيئة ، فيشيد للقدّيس كنيسة أفخم وأروع من تلك التي هدمها ، فتكون للقديس عوضاً ، ولانتصاره رمزاً وتنويهاً .

ذلك ما يقوله المؤرخون . ولكن كان من آمال فيليب التي داعبت خياله، الى جانب ذلك ، أن يقيم له ولآبائه ولأخلافه مدفناً يليق بمقام الملوكية . كذلك لا ينبغي أن نغفل عن أن ذلك الملك كان به نزعة الى التحفظ من الناس ومن المجتمع ، فكان محبًّا للعزلة والانفراد بصورة شاذة . ، ولم يفق رغبته في أن يحكم العالم ، إلاّ رغبته في أن يعيش عنه بمعزل ، فلا عجب اذا اختار ذلك المعزل البعيد بين جبال وادي الرامة ، ليقيم ذلك الأثر الباقي تحقيقاً لثلاثة أغراض معاً : فيكون منه دير ومدفن وقصر . ثلاثة أغراض ! كيف يوفق بينها المهندس والفنان ؟

وقع اختيار فيليب الثاني على المهندس « جوان بوتستا دي توليدو » :

Juan Bautista de Toledo فوفق في اختياره لأنه أدرك كيف يرضي الملك ، فيقيم له الصرح الذي داعب خياله . ولد هذا الرجل في اسبانيا ودرس هندسة البناء في ايطاليا ، ولكن عبقريته جعلته ينفلت من الأفق الذي عاش فيه معاصروه من المهندسين فلم يحتذ الأنماط الأسبانية ، بل اختار النماذج الساذجة البسيطة ، التي تؤدي على بساطتها معنى الفخامة والقوة والصلابة . فكان خير من يعهد اليه ببناء الاسكوريال ، الذي اقتطعت لبناته الصخرية من محاجر وادي الرامة ، وهنالك من صخر يسمى « برُّوكينا » Berroquena يشبه الصوان شكلاً ، ولكن لا يدانيه صلابة ، صوّر ذلك الصَّرح العظيم .

* * *

قبل أن يبدأ البناء اختار فيليب الثاني الرهبان الذين يشغلوه بعد أن يتم ، فوقع اختياره على طائفة منهم تعرف باسم « البرونيم » ، عرفوا بالتقوى والصلاح والعكوف على العبادة ، وكانوا مقرَّبين من أبيه الذي قضى قليلاً من أخريات أيامه في دير من أديرتهم . اتخذ خمسون منهم قرية « الاسكوريال » مقرًّا لهم ، حتى يتم بناء الدير الجديد ، فعاشوا في أشد حالات الشظف والجهد . ولكنهم أقاموا وجاهدوا وصبروا وصابروا حتى ضمهم الصَّرح الأعظم .

* * *

بعد ست سنوات من موقعة « سان كنتان » وضع حجر الأساس للبناء الذي سيقوم عليه الدير ، حيث أرساه فيليب الثاني في العشرين من أغسطس سنة ١٥٦٣ ، ذلك الدير أو المعبد الذي أصبح فيما بعد قطعة من أروع القطع التي خلفها عصر النهضة في أوروبا .

عجّت تلك الأصقاع الموحشة بالحياة ، إذ أمهَّا صنّاع وعمال من أنحاء المملكة الأسبانية ، وظلَّ الملك بينهم يتنقل من مكان الى مكان ، آمراً ناهياً ناقداً موجهاً ، حتى ليقال بأنه أشار بتنفيذ أشياء وتصميمات وجهت عبقرية المهندس ومهارة البنَّاء . ويقول المؤرخون إن الملك وجه من عنايته لاقامة هذا البناء ، قدراً لا يقل عما كان يوجه من عنايته لأخص حاجات المملكة وشئونها . ومن وادي الرامة كان يدير المملكة ويشرف على البناء ، فخوراً مزهوًّا بأنه يحكم شتيّ الأرض ، وهو بمعزل عن الناس .

وأخذ البناء يشبّ من فوق الأرض شيئاً بعد شيء، فكان أشبه بالمِسْحَجَة يدها سكن الملك ووسطها الكنيسة وجانباها القصر والدير، ولقد كان في إقامة البناء على هذه الصورة صعوبات ذللها المهندس « بوتستا » بعبقريته النادرة. ولكنه لم يعش ليرى ثمرة جهوده هيكلاً كاملاً. فلما مات في سنة ١٥٦٧، قام بالعمل « جِوان دي هرّيرا » وهو مهندس نمساوي من تلاميذ « بوتستا »، فلم يلبث أن يصبح من المقرّبين من الملك الحائزين ثقته التامة، حتى لقد جعل له الملك مرتباً سنويًّا ألفاً من الدوقات، ومكتباً في السكن الملكي، وكرّم بأن منح وساماً رفيعاً يعرف باسم « صليب سان ياجو » : Cross of St. Jago. ولقد حفر اسمه واسم بوتستا على أحد أحجار الأسكوريال تنويهاً بهما عند الأخلاف، وانهما أعظم مهندسي اسبانيا في عصرهما.

* * *

بعد واحد وعشرين سنة من وضع الحجر الأول لهذا البناء، احتفل باتمامه. ولا شك في أن هذه الفترة من الزمن تعد وجيزة الى جانب العظمة والاتساع اللذين اختصّ بهما « الإسكوريال ».

بدأ البناء وتمّ في حكم الملك فيليب الثاني. ولكن إقامة البناء كان بداية العمل في الزخرفة الداخلية والتأثيث. فلم يقتصر في ذلك على موارد إسبانيا وحدها، بل اشترك في ذلك جميع أطراف امبراطوريتها الواسعة. فالدمقس والحرير والقطيفة كانت من صنع غرناطة، وتنافس صناع المعادن في مدريد وطليطلة وسرقسطة في صناعة أدق التحف والزينات. واشتركت «ميلان» في تزويد القصر بما يحتاج إليه من صناعات الصلب والذهب والأحجار الكريمة. وجيء باليشب من « بورجو دي أوزما » والطنافس من الفلندر، وخشب الأرز من أمريكا، ناهيك بالآبنوس وغيره من نوادر الأخشاب. أما ستائر المذابح فقد اشترك في صنعها جميع أديرة اسبانيا. وفوق كل هذا جاءت الايدي الصُّنَّاع التي أخرجت روائع التصوير والنحت لتضفي من جمالها على ذلك الصرح العظيم. فوفد من إيطاليا الغريكو، وانجو يسكولا، وزكارو، ليمرّوا بأيديهم على قطع الفنّ فيصبونها في قالبها النهائيّ الرائع. ومن الفلندر وفد بوش، وميشيل كوكسي، ويقال إن تمثال المسيح

الذي نحت بالحجم الطبيعي من المرمر الأبيض كان من صنع بنفينوتو سكي. أما المقدس فصوَّره لوكاجيو ردانو، فمثل فيه العهد الذي قطعهُ الملك فيليب الثاني في «سان كنتان» عند ما هدم كنيسة القديس لورنس.

* * *

إن محيط بناء الأسكوريال ٢٩٨٠ قدماً، وبه سبعة أبراج وخمسة عشر باباً. وتحوي ردهاته ثمان وستين نافورة ومنبعاً، وبلغ وزن المفاتيح ١٢٥٠ رطلاً، وعدد الأبواب والنوافذ اثنى عشر ألفاً.

قد يتفق أن لا يحوي بناء آخر في العالم تحفاً مثل تلك التي يحويها الأسكوريال. ولقد أنفق فيليب مبالغ طائلة في الحصول على بضع مئات من المخلفات المقدسة كعظام القديسين والشهداء لتكون مِنّ محفوظات الأسكوريال في محاريب غنية بالزخارف مرصعة بالفضة.

أما أعظم ما حوى الأسكوريال من الآثار فتلك المكتبة النادرة، التي كانت في عهدٍ مّا أغنى المكتبات الأوربية، وكانت نواتها الأولى مجموعة من الكتب تبلغ أربعة آلاف مجلد، كثيرٌ منها كان في مكتبة الملك الخاصة، ومن بينها نسخة من أشعار فرجيل ترجع الى القرن العاشر، ونسخة قديمة من القرآن، ونسخة من سفر الجامعة تاريخها القرن الرابع عشر

على أن العناية التي صرفها فيليب نحو الموسيقى في ذلك القصر، قد بلغت حدًّا يثير الاعجاب بمزايا هذا الملك العظيم. ففي سنة ١٥٧٢ أي قبل أن يتم تشييد البناء بأكثر من اثنى عشر عاماً، أمر بنقل كتب التراتيل التي ستكون في الدير، وهي مهمة استغرقت سبعة عشرة سنة، حتى جمع منها ٢٦٠ مجلداً، مجموع صفحاتها ١٥٫٠٠٠ صحيفة مغشاة بالجلد الثمين والخشب الملبس بالنحاس المغشى بالذهب. وقد أنفق في هذا وحده أربعين رطلاً من الذهب وخمسة آلاف وخمسمئة رطل من البرونز. ولم يكد نقل هذه المجلدات يتم، حتى بدأ العمل في مراجعتها واصلاحها، بعد أن نسخت عن أصول كانت في كاتدرائية طليطلة

ومن أعجب العجب أن بعض الكتاب ينعون على الملك فيليب إسرافه. والواقع أن نفقات هذا الصرح قد بلغت ستة ملايين من الدوقات الذهبية. ولكن بأي شيء يقوَّم الآن ؟

قصة مترجمة

ڤيتالى

تأليف : جوتفريد كيلر

عاش في الاسكندرية في بداءة القرن الثامن عشر قسٌّ عجيبٌ يجري وراء الغواني اللواتي يبعنَ أعراضهنَّ كل يوم ولكل شارٍ ولا يزال بهنَّ حتى يعيدهنَّ سواء السبيل ويدلهنَّ على وسائل كسب العيش الشريف وكان يعرض نفسه للمهانة والتحقير والانتقاد المرير ولكنه لم يكن يعبأ بشيء من ذلك .

وكان يحفظ سجلاً يقيد به اسم كل غانية جديدة تهبط المدينة أو ضواحيها حالما يخبره بها شاب من شباب المدينة المستهترين الذين ما كانوا ليشكوا قط في أنه على غرارهم فاسق عربيدٌ ماجن . ثم يجري الى الغانية الجديدة فاذا لقيها قال لها « احتفظي لي بالليلة التي تتلو التالية فلا تعدي بها أحداً » فاذا ما وافاها في الموعد المنتظر تركها واقفة وانزوى في ركنٍ قصيٍّ من حجرتها وقضى ليلته مصلياً متعبداً حتى الصباح المبكر فيتركها بعد أن يأخذ منها موثقاً ألاّ تبوح لأحد بما حدث بينهما .

وسار القس على هذه الوتيرة زماناً كان يعظ ويرشد ويصلي ويتهجد حتى يثير الخير الكامن في نفوس أولياء البغايا ، ويغلّبه على الشر الطاغي على طباعهنّ ويقتلع من قلوبهنَّ الأثم والخطيئة ويضيئها بنور الايمان والتوبة ويقدمهنَّ الى المجتمع عضوات نافعات صالحات. كان يفعل ذلك سرّاً ، بينما كانت المدينة تتحدث عن القس الفاسق الذي انغمس في ملاذ الدنيا .

فاذا ما فوتح فيما يقال عنه لم ينكر ولم يبرىء نفسه من التهم ، بل كان يقول « أو تظنونني حجراً ، أم أن الله لم يخلق امرأة ما لقس ؟ واذا ما سئل لِمَ لا يخلع ثوب الرهبنة ويتزوج فلا يغضب الناس. قال: « فليغضب من شاء أن يغضب، من ذا الذي يحاسبني ؟ ويقطع الحديث بقوله » كيف نسيت تلك السمراء الفاتنة « دوريس » ؟! انها تنتظرني لشدّ ما يعز عليّ أن أدعها تنتظر . فلأذهبنَّ اليها توّاً ! »

وكان يزاحم الشباب على أبواب البغايا، بل كان يصل به الأمر أحياناً الى العراك والقتال وكثيراً ما كان ينتصر ويدلف داخلاً الى وكر البغي قبل أن يفيق المتزاحمون من دهشتهم من ذلك القس الذي يزاحمهم في أشد الخطايا إغضاباً لله .

وكان سعيداً في أداء رسالته على النحو الذي اختاره لها .

وسمع يوماً عن غانية فتنت القلوب بجمالها وجاذبيتها . ووقف ببابها جنديٌ أنيق بالغ الفتوّة والقوة يذود الناس عنها كأنما كان يرى فيها متاعاً خاصًّا به لا يجوز للعيون أن تتطلع اليه أو ترنو اليه . فقرر القس ڤيتالي أن يهجم على ذلك الحصن الحصين . وكما كان يفعل على أبواب البغايا الأخر فعل بباب هذه الغانية . فاشتبك في عراك حامي الوطيس مع الجندي الأنيق حتى اضطرّ هذا الى أن يخلي له الطريق، فدخل الدار ورأى المرأة واقفة عند غاية السلم منصتة الى الضوضاء . وكانت جميلة لا يحيط بجمالها وصف، فاتنة لا حدٌ لفتنتها. وكان شعرها الأحمر منثوراً كلبدة الأسد، وما ان رأته صاعداً اليها حتى صاحت به .

— إلى أين ؟

— اليكِ ياعصفوري ! أما سمعتِ عن ڤيتالي الرقيق اللطيف ؟

فسدّت عليه الطريق بجسمها الممتلىء صحة وقوة وقالت :

— أتحمل مالاً أيها القس ؟

— إن القسس لا يحملون مالاً

— إذن فاذهب يا حضرة المحترم وإلاّ أمرت بك فضربت بالعصي .

ولما لم يكن ڤيتالي قد خطر بباله أن يقابل مثل هذه المقابلة التي لم يصادفها في تجاربه الماضية، تولته الحيرة وأخذ يفكر في طريقة يخرج بها من مأزقه، فأخذ يبحث في ثنايا مسوحه حتى عثر بعلبة فضية مرصعة بالحجارة الكريمة فأبداها للغانية قائلاً .

— لا أمتلك غير هذه فاقبليها مني.

فأخذتها منه وفحصتها بعناية ولما قنعت بها سمحت له بالدخول الى غرفتها . فلم يلق عليها نظرة أخرى، وبدأ صلاته على النحو الذي تعوّده .

فظنت العاهرة أن القس بحكم عادته قد بدأ بصلاته قبل أن يقاربها، فانطلقت ضاحكة وهي تجلس على فراشها تنظر اليه، ولاح لها الأمر مسلياً أول شيء، ولما طال بها برمت به فكشفت عن كتفيها وذهبت اليه واحتوته بين ذراعيها البيضاوين القويتين، وضمت رأسه الى صدرها في قوة حتى كاد يختنق وظنت أنها قد أثارت بهذا العمل حيوانيته . ولكن الأمر لم يطل غير لحظة حتى أخذ يعمل جاهداً على التخلص من قبضتها الى أن تمّ له ذلك

بعد جهد ، ونزع عنه الحبل الذي يربط به وسطه وأخذ يصارع المرأة بكل قوة حتى استطاع أن يوثقها : يدين وساقين ، وألقاها بحالها تلك على فراشها ، وعاد الى صلاته

وأخذت تحاول الفكاك من قيدها كاللبؤة الثائرة ولكنه لم يعبأ بها . وأضناها الجهد فظلت هادئة ترقبه في صلاته حتى انبثق الفجر . فحل وثاقها وكانت قد تأثرت بما رأت وبما سمعت فجثت بين يديه تائبة مستغفرة باكية فربت عليها في حنان ووعدها بزيارة ثانية ليدلها على سبيل شريف تعيش منه . وتركها بعد أن أوصاها بكتمان ما حدث بينهما وبأن تذكر إذا ما سئلت أنه كان مرحاً معها كل المرح .

وجاء في موعده الذي ضربه لها فوجد الباب مغلقاً والمرأة مطلة من نافذتها في كامل زينتها وبهرجها تسأله عما يريد . فقال لها في حيرة بالغة .

— ما معنى هذا يا غزالي ؟

— أتريدني أيها القس الفاسق ؟ أمعك مال أو ما يقوم بمال ؟

ولم يطق صبراً فاندفع نحو الباب هائجاً يدفعه في عنف ولكن الباب كان محكم الرتاج فنظر الى النافذة ورأى المرأة قد اختفت .

واضطر ڤيتالي وقد رأى الناس يجتمعون من حوله ويضحكون منه الى ترك الباب ليبحث عن وسيلة تمكنه من معاودة اقتحام ذلك الوكر : وقادته قدماه الى كنيسة فارتقى درجها وذهب الى صندوق النذور واستولى على ما به ، وعاد الى بيت البغي كأي مغرم برح به الشوق وأتلفه الصبر .

ولما بلغ الباب وجد أحد المعجبين على وشك الدخول فأمسك بتلابيبه ودفعه خارجاً وأسرع فأغلق الباب وصعد في خفة وسرعة الى حيث المرأة التي ساءها أن تراه بدلاً من ذلك المعجب المدنف ، وألقى المال على مائدتها قائلاً :

أيكفيك هذا لأقضي الليلة معك ؟

وأخذت تعد النقود فلما انتهت قالت :

— إنه يكفي

وأخذت تعد نفسها للاغراء والفتنة ، ضاحكة متثنية واقتربت من ڤيتالي وأخذت تعبث بلحيته وتقابل نظراته الثابتة المستطلعة بنظراتها الفاتنة الساحرة ، فثارت فيه مبادئه وطهره وأمسك ذراعيها بيديه القويتين وألقاها على فراشها ، وظل جاثماً عليها ، وهي تحاول التخلص منه حتى تعبت وأجهدها الأمر فبكت وبللت دموعها خديها المتوردين ، وأظهرت ندمها وتوبتها ، فأطلق سراحها ، وجلس إلى جوارها ، بعد أن جلست وأخذ يعظها بفصاحة

وذلاقة لسان في شدة وصرامة ، ثم أخذ يلين لها القول حتى انتهى بالصفح والمغفرة . ولما اطمأنّ الى نتيجة عمله غادرها من الغسق وذهب الى بيته .

وما إن أضحى النهار حتى ذهب اليها ثانية ليرى ما هي فاعلة بعد الذي حدث بينهما في الليلة الماضية وليطمئن الى انها لن تعاود الزلل . وما قارب باب البيت حتى رأى ذلك الجندي فحاول الوصول اليه قبله، ولكن الجندي القى حربة كانت معه كادت تخترق رأس القس لولا أن مال عنها فغرست في الباب ، واستطاع فيتالي أن يخلعها وأن يوجهها الى صدر الجندي فاخترقته وسقط مضرجاً بدمه فأحاط بالقس جمع من الجنود كانوا مارين بمقربة من المكان واقتادوه الى المخفر محقراً مهاناً .

وظلّ فيتالي رهين محبسه أياماً ثم أفرج عنه ، لأن قتله الجندي كان دفاعاً عن النفس ولكنه خرج من السجن موصوماً بوصمة عار جعلت الناس يطالبون بأن ينزع عنه لباسه وأن يجرّد من درجته ، ولكن رئيس أساقفة الاسكندرية ، وكان على علم بحقيقة نواياه لم يستمع الى شيء من ذلك ، بل سمح لڤيتالي بمتابعة هوايته .

فأسرع الى العاهرة التي لم تستمع إليه إلاَّ بعد أن دفع لها أجر المبيت عندها . وتابت للمرة الثالثة، ثمَّ عادت ثمَّ تابت، وأنابت ، وأخيراً عوّلت على أن تتأرجح بين الاثم والتوبة لأنها رأت في ذلك فائدة قد لا تحصل عليها لو أنها سارت على نسق واحد من الاثم أو التوبة، وهي في كل مرة تختلق له عذراً جديداً ، لنكث العهد وخلف الميثاق .

وتعذّب فيتالي نفسيًّا وجسديًّا فيما كان يلقاه من تلك العاهرة . وكان يحس كلما أمعنت هي في خداعه رغبة أكبر في محاولة اصلاحها ، كأنما قد خيل إليه أن رسالته لن تتم إلاَّ إذا فاءت الى ربها، وأقلعت عن غيها . ولشد ما كان يؤلمه ما صار إليه أمره ، فقد أصبح لصًّا وقاتلاً ومرتكباً لكثير من الذنوب من أجل تلك المرأة، ولكن هذا الألم الذي نال من صحته ومن قوته ومن تفكيره ، حتى أضحى يسير كالخيال ، وإن لم تفارقه ابتسامته ، كان عذباً عنده مقبولاً .

قبالة بيت آلام « ڤيتالي » قطنت أسرة يونانية كان ربها من الأثرياء ، لم يكن له سوى ابنة وحيدة اسمها « يول » كانت في حل من أن تفعل كل ما يروق لها ، ولكنها لم تكن تستطيع شيئاً . فأبوها كان يجهد نفسه بالمطالعة والانشاء . أما يول فلم تكن لها هوية سوى الموسيقى فاذا برمت بها وضاق خيالها بذلك الجو الضيق الذي كانت تعيش فيه شغلت نفسها بالتطلع الى السماء والى الأفق البعيد .

وبهذا وقفت على أمر تردد القس على ذلك البيت ، وكذلك وقفت على الدافع الظاهري

الذي يدفعه لذلك التردد وخجلت من مسلك رجل الدين . وكانت ترقبه خلسة ، منكرة عليه أن يهوى الى درك اقتراف مثل ذلك الاثم . وعلمت من احدى خادماتها التي كانت صديقة لاحدى بنات الهوى ، كيف كان عبث العاهرة ، وماذا كان يرمي إليه من وراء مغامراته معها . دهشت وعجبت كل العجب من مسلك القس ، ولم تره على حق في السبيل التي اتبعها لتحقيق غرضه ، ولكثرة ما فكرت في شأن ڤيتالي صارت تراه في أحلامها . وكلما تكررت الرؤى زاد استياؤها منه ، وزاد في نفس الوقت حبها له !

وقررت يول أنه ما دامت السماء لا تريد أن ترد على القس احترامه ومكانته بهداية تلك العاهرة ، فلتأخذن على عاتقها اتمام هذا العمل وذهبت الى أبيها وطلبت منه أن يستغل نفوذه في إبعاد تلك البغي عن الحي .

وذهب أبوها الثري وبيده سلاح لا يقهر وقابل البغي وأغراها بالمال وطلب منها أن تغادر الحي بعد ما قبضت منه ما أرضاها فغادرته بعد ظهر ذلك اليوم . وبهذا حقق لابنته ما رجته فيه ، واعتبر الأمر منتهياً وعاد الى دراساته ومطالعاته .

أما يول فلم تعتبر الأمر منتهياً بل أمرت بمسكن تلك البغي فأزيلت منه كل آثارها وغيرت هيئته ، ونظف ورتب وأطلق فيه البخور والعطور . وأثثت غرفة العاهرة بسجاد ومصباح وغصن ورد . ولما آوى أبوها الى فراشه أخذت هي زخرفها وازينت وذهبت الى ذلك المسكن وجلست على السجاد وجعلت بباب البيت خادمين تثق بهما للمراقبة والحراسة

وجاء الى الباب الرواد الذين تعوّدوا أن يلجوه ولكن الخادمين صداهم وردّاهم على أعقابهم . وأخيراً جاء ڤيتالي فتنحى له الخادمان عن الباب وأفسحا له الطريق فعبر الباب وهو يتنهد وصعد السلم وهو يخشى أن تعاود المرأة السخرية به ، ويأمل أن ينجح في هذه المرة في اعادتها الى حظيرة الفضيلة والشرف ليتابع أداء رسالته مع زميلاتها الضالات . ولشد ما كانت دهشته حين رأى بدلاً من تلك المرأة الصاخبة ذات الشعر الأحمر ، فتاة وديعة جالسة على السجاد وأمامها غصن ورد . فأخذ يتلفت يمنة ويسرة ، حتى استقرّ بصره على الفتاة فسألها عن المرأة . وقالت يول :

— ذهبت الى الصحراء تائبة لتكفر عن خطيئتها . وقد جئتها صباح اليوم واستطعت أن أنزع من قلبها الشيطان ففضلت التوبة وباعت متاعها وأخذت سبيلها الى الصحراء بعد أن تبرعت بثمن هذا المتاع للفقراء . وكانت تذكر اسم ڤيتالي وكانت ترجو أن يكون موجوداً ليعينها . فحمد القس الله على أن رسالته قد انتهت . ثم وردت لخاطره فكرة فسأل الفتاة وهو ينظر الى غصن الورد .

— من أنتِ ومن أين قدمتِ وما شأنكِ هنا ؟

فأطرقت يول الحسناء الى الأرض وأخذت عيناها السوداوان تنظران الى الطنفسة ثم رفعت رأسها وقد علت وجهها حمرة الخجل مما كانت بسبيل الافضاء به إليه .

— أنا يتيمة لا أب لي ولا أم . فقدتهما ولم يتركا لي سوى ما ترى من متاع قليل . ولقد أردت أن أنزل هذا المكان لأتخذ نفس النهج الذي كانت تنهجه سابقتي .

— أوَهـذا زعمك ؟ يكاد الشيطان لا يفرغ من عمله . أتقولين هذا كما لو كنتِ لا تخاطبين فيتالي ؟ ماذا تظنين سابقتك كانت تفعل فتريدين أن تنهجي نهجها ؟ أخبريني !

— أريد أن أكون متعة للرجال ما دام العود أخضر .

وأشارت الى عود الورد وكلماتها لا تكاد تخرج من فمها وما أتمت حديثها حتى وقعت على الأرض خجلاً . فرأى القس أن الفتاة ما زالت بريئة وأن رسالته معها لن تستغرق منه وقتاً ولا جهداً . وأخذ يعبث بلحيته مفكراً في تلك الطفلة التي كانت على حافة الهاوية ، وحمد الله على أنه قد وصل في الوقت المناسب وسألها قائلاً : — وبعدئذٍ ؟

— وبعدئذٍ أظل امرأة فاسدة أحمل أوزاري الى أن يحين حيني أو أجد من يهديني ويؤويني في ملجأ أمين

— هـذا حسن وترتيب معقول . والمرشد موجود والملجأ ميسور فتذهبين إليه طاهرة لم تدنسي بعد إلاّ بالفكرة وهي داعٍ لا بد منه للتوبة والاستغفار بقية حياتك المقبلة. والآن حطمي غصن الورد واصغي إليّ

— كلاّ . سأصغي أولاً ثم أرى إن كنت أحطم الورد أم لا . لأن العظة لن تنفعني ما لم أقترف الأثم وأذوق لذته ، وما لم توجد الجريرة فلا محل للتوبة والاستغفار . أقول لك هذا قبل أن تبدأ كلامك لتفكر فيه ومع هذا فإن بي رغبة شديدة لسماع نصحك

وأخذ القس يتدفق مواعظ بالغة ومنطقاً سلساً مستساغاً ونغماً حنوناً جميلاً ، ولـكن لم يبلغ قلبها ، إذ انفلتت من شفتيها الجميلتين ضحكة مغرية ، فلما انتهى من عظته وقد تصبب جبينه عرقاً قالت :

— لقد تأثرت بعض التأثر وما زالت تجتاح قلبي رغبة ملحة في الأثم ولذته ، ووقف الرجل مشدوهاً ، فقد خابت فراسته لأول مرة ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً متنهداً مفكراً ، ينظر من حين لآخر الى تلك الفتاة التي تعد نفسها لجهنم وقوداً . وتعجب من اجتماع البراءة مع قوة الشيطان في تلك الطفلة إلاّ أنه ودّ جاهداً لو استطاع تخليصها مما هي مقدمة عليه . وأخيراً قال :

— لن أبرح مكاني حتى تتوبي ولو قضيت به ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ سويًّا .

— ذلك يزيدني اصراراً على اصرار فاترك لي فرصة للتفكير . وعد إليّ غداً فان النهار يوشك أن يطلع . وأعدك بأني لن يمسني بشر . فعدني بألاّ تذكرني لانسان ، وأن يكون مجيئك تحت جنح الظلام .

ووافق فيتالي ورحل . وانفلتت هي عقب رحيله الى بيت أبيها ولم تنم يومها كثيراً إذ كانت تفكر في المساء القادم وفيما قد يحمله من تجارب في طياته . وسرّها أن قضت ليلة بطولها مع ذلك القس ورأت نار الحماسة تتألق في عينيه وقوة عزيمته في حركاته رغم ثيابه الكهنوتية . كانت ترجو أن يصبح لها زوجاً .

وجاء المساء وجاء القس ، فوجد يول جالسة على السجادة تنتظره . فبدأ يتكلم ويعظ ويمعن في الارشاد ويصلي ويتفانى في الصلاة ، وكانت اذا تكلم أنصتت واذا صلى اضطجعت وتظاهرت بالنوم أو بالرغبة فيه ، فيدفعها بقدمه كما كان يفعل مع المذنبات الآثمات . ولكن قدمه ما كانت لتصل الى جنبها حتى تكون قد نفدت قوتها ووصلت هينة رخاء كاللمس أو كالهمس ، ولم يكن قد عهد لنفسه هذا الذي أحسه نحو تلك الفتاة .

وعند ما اقترب الصبح أخذ رأسها يميل يمنة أو يسرة إعياءً وجهداً ، فقال فيتالي :

— من العبث أن أحدثك فانك تنامين

ففتحت عينيها فجأة وابتسمت ابتسامة حلوة تحكي حلاوة الفجر وينعكس عليها اشراق الشمس وقالت :

كلاّ لست بنائمة بل منتبهة كل الانتباه . ولقد بدأت أشعر بفظاعة الاثم من مبلغ اهتمامك بأمري ، فما يرضيك يرضيني ، وما يغضبك أمقته كل المقت

فرح القس واستخفه الفرح فقال :

— أحقًا تقولين ؟ أقدّر لي أن أنجح ؟ هلمي بنا الى الدير حالاً قبل أن يعود اليك الشيطان . — انك لم تفهمني وطأطأت رأسها قائلةً : — اني أحبك !

ففغر فاه وجحظت عيناه دهشة مما سمع . وتابعت هي حديثها وقد زادت حمرة خديها :

— فمن واجبك أن توالي وعظك ونصحك لتخلصني تماماً من مرضي وأرجو أن تنجح

ولم ينطق فيتالي ببنت شفة بل جرى مسرعاً مغادراً البيت وبدلاً من أن يلجأ الى فراشه سار في العراء يستقبل الصبح السافر ، وهو نهبة الأفكار المتضاربة ، أيترك تلك الفتاة الخطرة لمصيرها المقدر لها ، أم يواصل أداء رسالته معها حتى يخلصها مما هي واقفة له . وشعر أن منطقه قد بدأ يخونه ، وانه أصبح في حال جديدة ليس له بها من عهد

وساقته قدماه إلى تمثال الالـهة « يونو » فوقف حياله كأنما يسألها أن تخرجه من مأزقه. وقال يحدّث نفسه « إذا أومأ التمثال أتم رسالته مع « يول » ، واذا هزّ رأسه نفض يده من أمرها » . ولكن التمثال لم يومىء ولم يهز رأسه . ولكن حدث أن قطعاً من السحاب مرت وقتئذٍ فألقت ظلالاً على وجه التمثال جعلته يبدو مبتسماً . وتلك طبيعة المرأة اذا ما ذكر في حضرتها الحب ابتسمت ولم يحل دون ابتسامتها حائل مهما كان أمره ! وزادت الابتسامة التي تخيلها ڤيتالي على وجه إلـهة الحب القديمة من شجاعته كما زاد من عجبه ذلك الشبه الكبير بين تلك الالـهة والفتاة « يول »

وفي نفس اللحظة كان والد يول يتريض في حديقته ليلقي نظرة على تلك التماثيل القديمة التي اشتراها حديثاً . كان أحدها يمثل « لونا » تسوق عربتها فوق السحاب وقد تبدد الحب خلفها دون أن تعبأ به . وآخر كان يمثل « مينرڤا » ساهمة والحب على ركبتها يداعب صدرها بيده ليرى أثر ذلك فيها . وهكذا كانت التماثيل لا تتحدث إلاّ عن الحب ، فأثارت في الرجل الهرم كوامن الشجن، وشاء أن يقول شعراً يعبر به عما كان يحسه وقتئذٍ ولكن « يول » ظهرت أمامه شاحبة اللون إذ كانت قد أمضها الأرق فقلق خاطره وسألها عما أرقها ولم ينتظر جوابها، بل أخذ يشرح لها قصة كل تمثال من تلك التماثيل. وتنهدت الفتاة قائلةً :

— أعجزت كل هذه القوى التي تمثل الطهر والحكمة والدين عن أن تقاوم سلطان الحب ! فكيف لمخلوقة ضعيفة مثلي أن تتحصن منه ؟ فاندهش الشيخ وقال :

— ماذا أسمع ؟ أطعنك الاله « إيروس » بحرابه ؟

— وبلغت طعنته قلبي . وإذا لم أنل الرجل الذي أحببته بين يوم وليلة مت حباً ،

ورغماً من أن الرجل كان يسمح لفتاته بنيل ما تطلبه وتحقيق ما ترجوه ، فان هذه العجلة وفي مثل هذا الأمر جعلته يتريث ويطلب من يول أن تتريث هي الأخرى ولكنها أصرت على نيل مأربها مما دعا الرجل الى أن يبدي عجبه قائلاً

— أتريدين مني أن أذهب الى الرجل الذي تبغين فأجره من أنفه إليك وأرجوه أن يتزوج منك وأقول له : هاك فتاة بديعة أرجو ألاّ تحتقرها ولقد أستطيع أن أضربك إذا لم تذعن لرغبتها، ولكني أخشى أن أغضبها بهذا العمل فتموت ، ولهذا فليس لي إلاّ أن أرجوك بحق السماء أن تذوق الحلوى المعروضة عليك فقد أجيد طهيها وستذوب في فمك !

فقالت الفتاة

— بل أنا التي آتيك به اذا سمحت وهو الذي سيرجوك أن تحسن بي عليه !

— وإذا اتضح أن هذا الرجل تافه حقير ؟!

— اذن فاطرده . ولن تفعل فهو قديس

— أسرعي إذن ودعيني مع تحفي وتماثيلي .

وأقبل المساء ولم يكن الليل قد أظلم ، بعد حين دخل ڤيتالي في أعقاب يول في ذلك المنزل المعروف ، وكان دخوله هذه المرة مخالفاً لدخوله في المرات السابقة ، فقد كان قلبه ينبض في قوة وسرعة . كان ڤيتالي هذا غير ڤيتالي الذي غادر البيت مع مولد اليوم فلم يعد يميز ابتسامة العاهرة من ابتسامة العذراء الطاهرة . ولقد عوّل على أن تكون تلك الزيارة هي الأخيرة .

ولقد رأى في هذه المرة غير ما كان يراه في الزيارات السابقة . رأى الأثاث كاملاً وقيّماً لا يوجد مثله إلا عند ذوي اليسار وموفوري النعمة ، ورأى « يول » جالسة على فراش وثير وفي ثياب أنيقة وبدا له جمال الفتاة في تلك الليلة كأروع ما يكون الجمال . لا مأخذ عليه ولا موضع للنقد فيه . وأخذ ڤيتالي يبحث عن فصاحته فلم يجد لها أثراً ، وحرّك لسانه في فمه فوجده في مكانه ، ولكنه كان قد فارقته القدرة على النطق . وقالت يول :

— أأنت في دهشة أيها القس الجميل من أمر ما ترى من زخرف وزينة ؟ انها حفلة الوداع للجو الذي كنت أرجو أن أعيش فيه . وسأتخلى عن عاطفتي نحوك بالرغم مني فأرجو أن تعينني على بلوغ هذه الغاية الكريمة وطلبي يسير وتنفيذه أيسر . فأنت تعلم أن النصح ثقيل على النفس مرّ المذاق ، فما بالك به إذا صدر عن قس لايكاد المرء يراه حتى يعد نفسه لسماع عظة أو نصيحة ؟ والقس لا يدري ما هو الحب بحكم وظيفته ، فوعظه في هذه الناحية ضعيف غير مقبول لا يؤتي ثمرته المرجوة ، وأنا فتاة من فتيات المجتمع فانزل من سمائك الى أرضي وخاطبني بلغتي أستمع اليك واني لعلى استعداد للائتمار بأمرك

ولم يتكلم القس بل رأى أن ما أشارت به يول وجيه ، وأنه قد يؤدي الى نزع الشيطان من قلبها ونفسها بضربة واحدة .

فانتحى ناحية وجد فيها خادمين ينتظرانه بثياب أنيقة ، وعاد إلى « يول » التي ما رأته في هيئته الجديدة حتى صفقت طرباً

وحدثت المعجزة ولم يتناول التغيير مظهر القس فقط ، بل تناول كذلك نفسه فما أن جلس الى جوار تلك الفاتنة حتى تبخّر ماضيه كما تتبدد الأحلام ، بل نسي الغرض الذي كان يرمي اليه . ولم ينطق حرفاً من العظات التي كان قد أعدها واكتفى بالانصات الى « يول » وهي تتحدث ممسكة بيده تقص عليه قصتها كما هي ، فقالت له : من هي وأين تعيش وكيف كانت رغبتها أن يقلع عما كان عليه وأن يتقدم الى أبيها طالباً يدها فيصبح زوجاً

لها إرضاء لله. وانساب حديثها حلواً دفاقاً وهي تذكر له قصة حب قديم ، وختمت حديثها بأن تنهدت قائلة إن آمالها قد انهارت وأمانيها قد تحطمت إن لم يسمح هو بالابقاء على هذه الأماني وتلك الآمال . وطلبت منه ألاَّ يصدر حكمه إلاَّ بعد أن يأكلا معاً الطعام الذي أعدته لهما ، وكان قوامه اللبن واللحم .

وباشارة من يدها أتى الخدم بمائدة عليها أصناف الطعام الشهي وأخذت تقدم له بيدها مما كان على المائدة وهو ممسك عن الكلام

وما أن انتهى من طعامه وشرابه ، وكان قد تمكن منه التعب والجهد حتى مال برأسه نحو بول وراح في سبات عميق حتى مشرق الشمس .

ولما استيقظ لم يجد معه أحداً فوقف على قدميه مسرعاً وأفزعه الثوب الأنيق الذي كان عليه ، فجاب جنبات البيت بحثاً عن ثياب الكهنوت ولكنه لم يعثر لها على أثر . وأخيراً رأى كومة من الرماد وفي وسطها بقايا ذلك الثوب الديني المحترق .

وسار من نافذة الى أخرى يرقب الشارع . وأخيراً أوى الى الفراش فوجده ليناً لطيفاً على غير ما الف من فراشه الخشن الجاف ..

وقام من الفراش ثانية وأصلح من هيئته ونزل من الباب حيث وقف متردداً بعض الوقت ، ثم فتح الباب على مصراعيه وخرج كأكثر ما يكون رجل أناقة ووسامة لا يستطيع أحد أن يقول عنه إنه القس ڤيتالي ، بل سائح غريب جاء يقضي بضعة أيام في الاسكندرية .

ولو تطلع فيما حوله لرأى « بول » على سطح بيتها ترقبه . ولكنه سار قدماً نحو ديره وهناك قرر زملاؤه ورئيسهم طرده من زمرتهم لسوء مسلكه ، لا سيما بعد أن ظهر بينهم بهذه الثياب وثبت لديهم ما كان يشكون فيه ، فانقضوا عليه وأخرجوه الى خارج الدير

وكان تصرف القساوسة معه قاسياً فأتى على ما كان في قلبه من حب للكنيسة وخدمتها فسار جاداً الى حيث كانت « بول » تقيم مع أبيها ونفذ ما رسمته له

وأصبح ڤيتالي الزوج الكامل لبول كما كان الرجل الطاهر خلال التجارب العنيفة التي مرت به حين كان يتشح بثياب الكهنوت .

لم تدرك الكنيسة إنها أخطأت ، إلاَّ بعد أن خرج « ڤيتالي » من عالم الآخرة الى عالم الدنيا .

عبد المنعم صادق

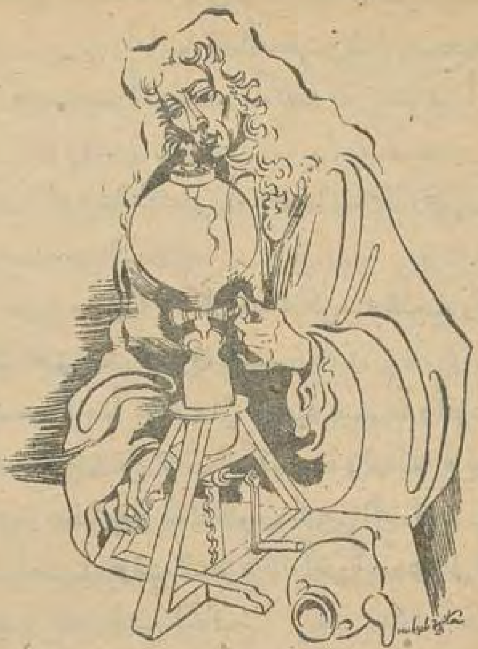

روبرت بويل

The Hon. Robert Boyle

كان روبرت بويل أول من وضع النظرية التي قام عليها أساس الكيمياء، عملاً وفكراً . ومحصل تلك النظرية أن العنصر في الكيمياء هو أبسط كل المواد

كان أول ما اذاع نظريته هذه في مقال عنوانه الكيميائي الشاك نشرت في سنة ١٦٦١ وقبل أن يضع « بويل » نظريته ، استمسك العلماء بفرض فرضه أرسطوطاليس في القرن الرابع قبل الميلاد إذ قال ان العناصر اربعة هي النار والماء والتراب والهواء ، وان كل المواد تتركب من هذه العناصر بنسب مختلفة . وكان استكشاف بويل حقيقة العنصر الكيميائي اكبر انقلاب أصاب الفكرة العلمية في جميع العصور .

هو ابن آرل كورك ، ولد بقصر « لسمور » : Lismore Castel في ارلندة سنة ١٦٢٧ وفي الثامنة من عمره ذهب الى مدرسة في إيتون ، ومن ثمت الى اكسفورد ، وأمضى بقية عمره بين جدران تلك الجامعة مكرساً كل وقته وجهده للبحث العلمي .

من الاشياء التي اخترعها « المضخة الهوائية » ، واستخلاص مثيل الكحول من الخشب ، ثم « قانون بويل » الذي لا يزال مجرياً في دور العلم لاثبات أن حجم الغاز يختلف بالضغط .

« قبل عصر « بويل » كانت الكيمياء شبكة الصيد التي ينشرها مدعو الطب والسيميائيون. لكن عمله العلمي في جامعة اكسفورد قد رفع علم الكيمياء الى مرتبة العلوم الطبيعية الثابتة فلا عجب إذن اذا أعتبر « بويل » الاب الاول لذلك العلم .

برشلونة

أول مدينة ساحلية على ساحل البحر الأبيض المتوسط وفي الشمال الشرقي من اسبانيا والعاصمة الثانية لها والمنفذ الطبعي للاقاليم الداخلية، أقيمت عند مصب نهر Llobregat في منطقة خصبة غنية بثرواتها الزراعية والصناعية كصناعة المنسوجات والفلين والورق وغيرها .

ونظرة بسيطة الى برشلونة تدلنا على أن التأثير العربي فيها لا يكاد يذكر ، إذ كانت عاصمة إقليم قطالونيا في عهد الرومان . ثم استولى عليها العرب عام ٧١٣ عند ما غزاها موسى بن نصير لأول مرة وأطلقوا عليها اسم (برشينونا) ثم شاعت (برشلونة)

لكن لم يلبث أن انتزعها شارلمان من العرب عام ٨٠١ ثم آلت اليهم ثانياً عام ٨٥٦ وظلت في أيديهم حتى أغار الفرنجة عليها لآخر مرة عام ٩٨٥ .

لذلك كانت أبنيتها القديمة قوطية الطراز ، وخاصة في الحي القديم منها ، حيث الكاتدرائية الشامخة التي يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر . أما باقي المدينة فحديثة البناء متسعة الطرقات تزينها الحدائق المنسقة ، وتماثيل آية في فن النحت.

هكذا وجدنا برشلونة وسنعرض لأهم ما استرعى نظرنا فيها من تقاليد ومعالم وآثار .

تصادف أن أقيمت مصارعة للثيران (Corrida) كوريدا عصر ثاني يوم وصولنا الى برشلونة . فهرعنا لمشاهدتها بدعوة من محافظ المدينة . وقد أقيمت المصارعة في مدرج دائري يشبه « الانفتياتر » الروماني ، يتوسطه ملعب مستدير له أبواب يفتح إحداها لحظيرة الثيران الثائرة ، وآخر لأبطال المصارعة ومساعديهم .

ويظهر أن هذه الرياضة المحببة للأسبانيين ، المتأصلة في دمهم لم تكن من اختراعهم وابتكارهم وإنما توارثوها عن الرومان أثناء حكمهم لهم خلال القرنين الثاني والثالث الميلادي، إذ كانوا يعذبون أعداءهم بوضعهم في وسط (الانفتياتر) ويطلقون عليهم ما جمعوه من الحيوان الكاسر كالأسود والنمور، فتنقض على أعدائهم ، وتفتك بهم تحت بصر الرومان .

واستمرت هذه الظاهرة الى ما بعد الحكم الروماني ولكن بصورة أخرى ، فتهذب هذا الصراع بين الانسان والحيوان ، وأصبح رياضة ممتعة ، طرفا النزاع فيها الانسان والثور كما سنرى بعد .

كانت الموسيقى تصدح بأنغامها الشجية لاستقبال آلاف النظارة الذين وفدوا من كل حدب وصوب من أنحاء برشلونة وغيرها من المدن الاسبانية لرؤية هذه المصارعة المحببة لديهم . وأخذت هذه الوفود ترد وحداناً وزرافات فاحتشدت بهم الدروب والدرج المؤدية الى أماكن اللعب ، ولولا دقة الاشراف على دخول وخروج هذه الآلاف المؤلفة التي تبلغ نحو الأربعين ألفاً ، لما مرّ اليوم بسلام دون حادثة من تلاطم تلك الأمواج البشرية .

وأفضل الأماكن لرؤية المصارعة ، تلك التي في الطباق العليا من المدرج إذ يستطيع الجالس بها الاشراف على كل صغيرة وكبيرة في الملعب ، واذا أجلت البصر في أنحائه لا ترى إلاّ حركة واحدة تتمايل يميناً ويساراً كأمواج تداعبها الرياح على صفحة الماء ، ألا وهي حركة اهتزاز آلاف مراوح النساء — التي تعد لازمة من مستلزمات كل فتاة وامرأة أسبانية تروّح بها عن نفسها من قيظ الصيف المرتفع الحرارة ، كما تعبّر بحركتها عن كل ما يجول في خاطرها من مشاعر واحساسات .

وسرعان ما ابتدأ الشوط الأول من المصارعة — وهو أحد ثلاثة أشواط يتكوّن منها اللعب — وانفرج باب حظيرة الثيران عن فرجة انطلق منها كالسهم ثور Toro متوسط الارتفاع قاتم اللون ، له قرون طويلة مدببة ، يتدفق قوة وحيوية ، يشع من عينه غيظ وشرر مستطر ، لينتقم من القوى البشرية الغاشمة التي لا تشفق بالحيوان ولا ترأف به .

يقف الثور وسط الملعب ، زائغ البصر ، باحثاً عن خصمه الذي أجبره على نزاله ، ويتقطر من فوق عنقه بعض قطرات دم نتيجة ضربة حربة في حظيرته قبل خروجه للمصارعة لتزيده شراسة وإمعاناً في عناده في المقاتلة ، ولولا قصر نظره لاندفع نحو حاجز الملعب وهاجم الجمهور ونكل بهم جزاء لهم على سخريتهم به ، وتضامنهم مع ممثلهم « البطل » متادور Matador المصارع . وقد أراد الله أن يحد من حركاته إلاّ في حيز محدود ، في منتهى بصره ، وأضفى بطء الحركات على المصارعة نوعاً من الهدوء مع خفة الحركة ، مصحوبة بتؤدة وحذر من جانب المصارع .

وسرعان ما توسط الملعب مساعدو البطل بملابسهم الوطنية التقليدية المزركشة بألوان زاهية يغلب عليها إما اللون الأصفر أو الأحمر ، وبيد كل منهم « ملاءة » غالباً ما تكون حمراء كلون الدم لتثير الثور الذي يأبى أن يرى تلك الدماء لأنها نذير شؤم عليه كما يبعث في نفسه الخوف من الموت المحقق الذي يدافع ضده لينقذ حياته بكل ما أوتي من قوة .

يداعب كل من المساعدين الثور بملاءته ساخرين منه ، وكلما ازدادوا به استهزاء ومداعبة وكلما ذهبت هجوم الثور سدًى كلما ازداد الثور حدّة وغيظاً . وكلما ارتفعت

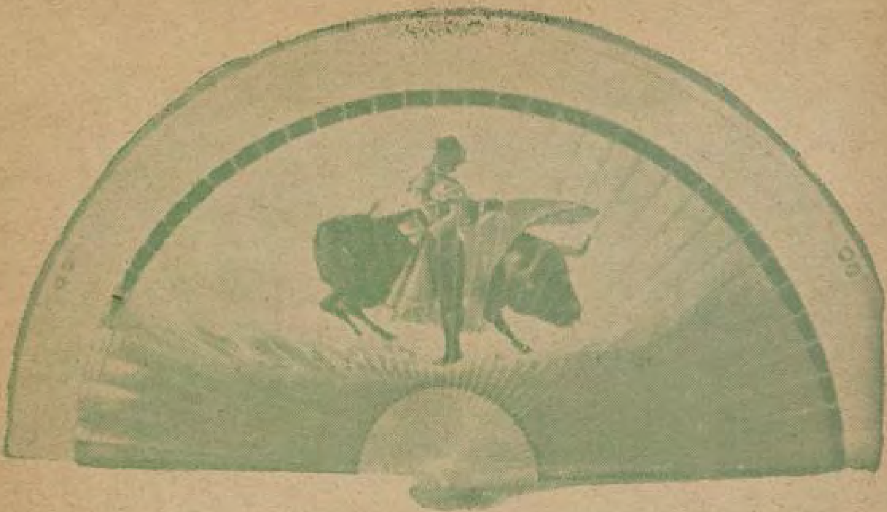

بلغ من شدة ولع النساء أن رسمت مشاهد المصارعة على مراوحهن

احدى قاعات المتحف البحري المستصلحة عام ١٩٤٣ تعرض نموذجاً للمراكب الشراعية في العصور الوسطى

درجة غليان دمه ، وكبتت في نفسه دون أن تجد منفساً كلما ازداد جنونه وتخبط خبط عشواء ، واشتدت حركاته عنفاً واقداماً . وكلما كثرت مداعبة المصارعين للثور واتزانهم في هجومهم دون أن يصيبهم بأذى ، كلما اشتدت صيحات الجمهور إعجاباً بهم . وهكذا ينتهي هذا الشوط بين أنغام الموسيقى .

يبدأ الشوط الثاني بدخول مصارعين آخرين على ظهور الخيل ، وقيت بطونها بدروع من حديد ، وبيد كل فارس حربة كبيرة مدببة الطرف ، يتقدم الفارس رويداً رويداً نحو الثور الذي يبدأ بهجومه ويقابله برمحه الذي يندفع في عنق الثور الذي لا يلبث أن يشعر به ، فيتقهقر الى الوراء ليتخلص مما أصابه ، ثم يعاود الكرة مرة ثانية وثالثة ، وفي كل مرة يزداد فيها هجوم الثور على الفارس يزداد اندفاع الحربة في جسمه .

أما إذا أخطأ الفارس في ضرب خصمه فقد يعرضه لهجوم الثور عليه وطرحه أرضاً بفرسه ، وهنا تكون الطامة والموت المحقق إذا لم يدركه المصارعون المساعدون بملاءاتهم الحمر لصرف نظر الثور عن الفارس .

وقد كان في الزمن الماضي لا تقي الخيل درعاً واقياً أسفل بطنه . وكان كثيراً ما يصاب بقرون الثور فتشج بطنه وتتدلى أحشاؤه والفارس ممتطياً صهوته حتى آخر رمق في فرسه . وينتهي هذا الشوط بعد مصارعة ثلاثة أو أربع فرسان وبعد ان يجهد الثور وتخور قواه .

أما الشوط الثالث والأخير ، فهو المرحلة النهائية التي يظهر فيها بطل المصارعة مختالاً بجماله ، وانعكاس أشعة الشمس على ملابسه ، فترتد الى عيون الجمهور ، فيعجبون به ويزداد هتافهم وتلويحهم بما في أيديهم عندما يخفض من هامته محيياً إياهم ، ويقوم البطل بالدور الرئيسي الذي تنتهي بقتل الثور بأقسى ما يتصور . العقل البشري كما سترى بعد .

يداعب البطل الثور حتى يجهد ، ثم يقوم بمرحلة من أخطر المراحل التي سيتعرض فيها للموت المحقق — كما حدث فعلاً قبل وصولنا لبرشلونة بعدة أشهر للبطل Manoletto (1) الذي توفى بعد اصابات مميتة — لتهاونه لحظة التفت فيها للجمهور دون حذر من الثور . وعلى البطل في تلك المرحلة أن يتسم بالجرأة والشجاعة ورباطة الجأش ، والقدرة على تسديد ضربات حرابه في موضع معين فوق ظهر الثور عند اتصال عنقه بجسمه ، وعليه أن يضربه ثلاث مرات بثلاثة أزواج من الحراب ذات أيدٍ قصيرة يمتاز كل زوج منها بلون معين كالأخضر والأصفر والأحمر .

أما الخطوة الأخيرة ، فينتهز البطل فرصة هجوم الثور عليه ، وفي لفتة معينة من لفتاته وانحناءة بسيطة لرأسه نحو الأرض ، ويضربه بسيفه ضربة قاضية ينفذ فيها السهم الى قلبه

فيرديه قتيلاً ، ويخر الثور على الأرض صريعاً مدرجاً في دمائه مسلماً روحه الى بارئها بعد نضال يائس للدفاع عن نفسه . تجره الخيول بسلاسل الى الخارج وسط دوي هائل من الهتاف بحياة البطل وشجاعته واقدامه . ويصعد الى عنان السماء صيحة الفرح والاعجاب يا ألله « أولى » مختلطة بأصداح الموسيقى . ولا ترى إلاّ آلاف مراوح النساء وقبعات الرجال وباقات الزهور تقذف الى البطل تقديراً لبسالته وتمجيداً لشجاعته .

أما الثور(٢) الشهيد ، فقد يحتفظ البطل بقرونه ورأسه لتحنيطها وتعليقها في بيته مع غيرها من الرؤوس الأخرى دليلاً على عدد انتصاراته ، كما يهدي لحم الثور الى أصدقائه أو الجمعيات الخيرية أو يباع للجمهور لطهيه .

وتتكرّر هذه المأساة ثلاث مرات يقتل في كل منها ثور ، وبذلك ينتهي حفل اليوم.

لقد كان لهذه المصارعة أثر فعال في نفوسنا لأنها محاولة قاسية من الانسان لاظهار قوته في قتل حيوان بريء بأبشع صورة ، مستعملاً أشد وسائل التعذيب للتخلص منه بطريقة منظمة ، فاستنكف بعضنا هذه المحاولة من جانب الانسان المتحضر . واستنكر هذا العمل لقتل حيوان لاجرم ارتكبه ولا إثم اقترفه .

إذاً ما فائدة هذه الرياضة المقصورة على نفر قليل من الناس ، ولم يهتم باقي الشعب بها كل الاهتمام . ولِمَ هذا الاقبال المنقطع النظير من الجمهور وحرصه على مشاهدتها ، وبذل أجور مرتفعة لا تقل عن جنيه مصري لكل متفرج .

ـ هل الغرض منها جمع مال للدولة والقائمين بهذه المصارعة التي بلغت خلال عام ١٩٤٧ ما يقرب من ٧٥ مليون بزيتة (الجنيه المصري = ٤٤ بزيتة).

قيل لنا أن هذا المال يصرف جميعه على إقامة المصارعة ، إذ بلغ ثمن الثيران ٢٨ مليون بزيتة ، وما أخذه المصارعون ٣٤ر٥ مليون بزيتة .

انما هناك معاني سامية خفية تشع من هذه المصارعة ، فالأسبانيون يمجدون كل ما يحفظ قوميتهم ، ويبعث فيهم روح الجلد والصبر والشجاعة والاقدام والجرأة والاستماتة للدفاع عن النفس مهما قابلهم من صعاب ومخاطر . ولا يجد الاسبانيون وسيلة تحقق كل هذه الغايات السامية مجتمعة سوى هذه المصارعة ، فتأصلت في دمائهم على مدى الأجيال . ويكفي رؤية حفلة واحدة من حفلات المصارعة لترى الحماس والاعجاب يجري في دمائهم وسيظل يتدفق في عروقهم ما دامت هذه المصارعة قائمة .

وقبل ظهر اليوم الثالث وصلنا الى ميدان فسيح يتوسطه قاعدة تمثال شاهق يرتفع الى عنان السماء ، يعلوه تمثال كريستوف كولمبوس الرحالة العظيم ، مولياً وجهه شطر المحيط

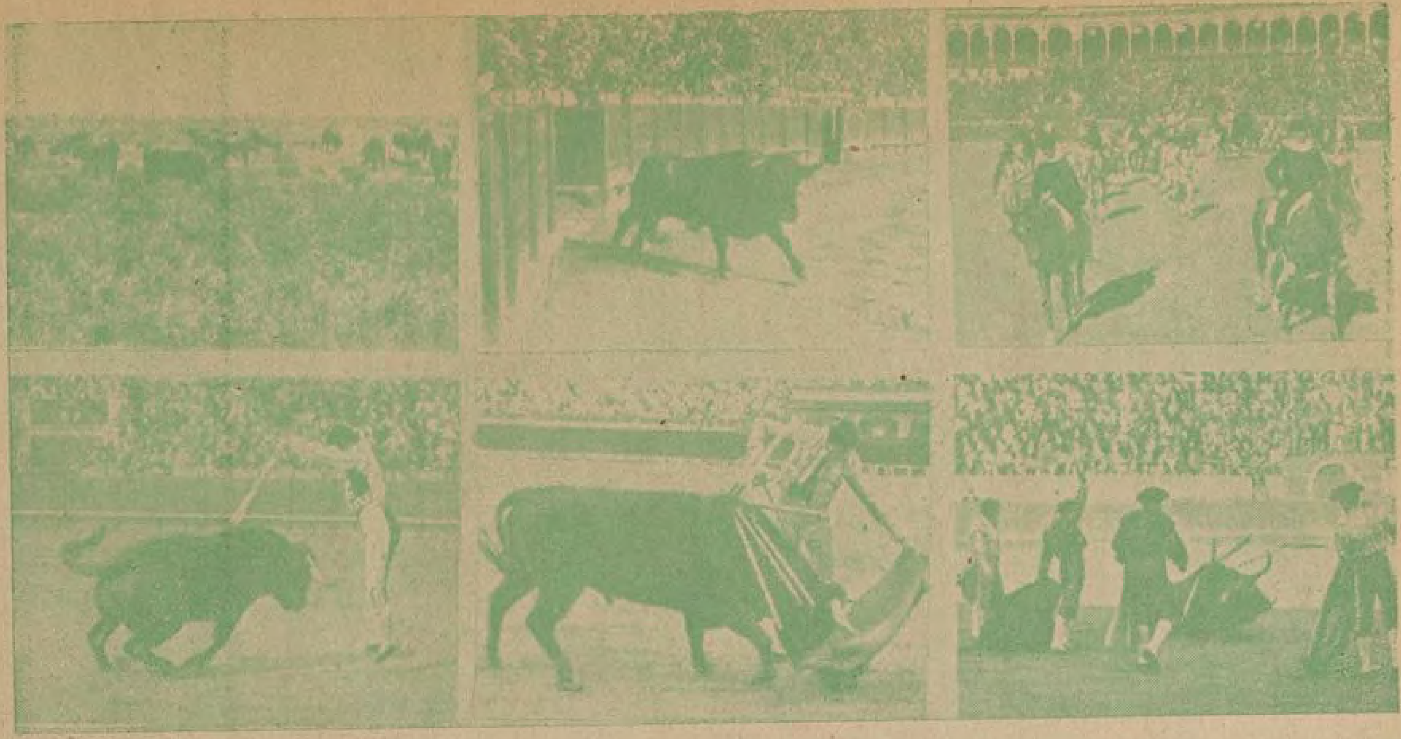

في الصف الأعلى من اليسار : (١) مرعى الثيران البرية بأندلوسيا (٢) هجوم الثور من حظيرته في بدء الشوط الأول
(٣) المصارعون الفرسان وخلفهم المساعدون

في الصف الأسفل من اليسار: (٤) المصارع مانوليتو وهو يدفع حربتيه في عنق الثور (٥) المصارع مانوليتو بيده سيفه وبالثانية وشاحه يحاور به الثور بعد ان دفع في عنقه الحراب الست (٦) مصرع الثور بعد ضربه بالسيف

الاطلسي وجزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية التي اكتشفها ١٤٩٨ لأول مرة ، كأنه يذكر الاسبانيين بالجهود الجبارة وفضلهم على العالم باكتشاف آفاق جديدة من عالمنا الحاضر هي أمريكا التي اكتسبت اسم الرحالة أمريجو الذي تتبع طريق سلفه كولمب ١٥٠١ باكتشاف ما لم تسنح به الفرصة لكولمب .

وفي أحد أركان ذلك الميدان المطل على ساحل البحر الأبيض ، حافظ الاسبان على أثر خالد أسس على مجد تليد قاوم صروف الدهر وأحداث الزمان ، فلم ينل منه إلاّ البلى الذي لا يتناسب مع ما يحيط به من عمائر العصر الحديث . ذلك البناء هو بقية من دار الصناعات البحرية Atarazanas التي كانت قائمة في الفترة ما بين القرنين ١٣، ١٨ الميلادي ، وهي تقابل عندنا «الترسانة» المخصصة لبناء واصلاح السفن البحرية . أما اليوم فقد استخدم الاسبانيون هذا البناء القديم في حفظ ما تبقى لديهم من مخلفات تلك الدار، مع نماذج ما كانت تصنعه من السفن الأسبانية الأولى التي خاضت غمار بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) لاكتشاف أمريكا، كما أعدّ به نماذج وصور السفن والمعدات البحرية كالخرط الجغرافية والبوصلة التي لم يستطع الحصول عليها ولا الابقاء عليها لليوم . ولذلك عدّت هذه الدار أعظم متحف بحري Museo Martimo لتطور بناء السفن حتى اليوم .

كما يضم هذا المتحف بين أروقته التسعة الشاهقة الارتفاع نماذج لتطوّر بناء السفن البخارية. ولذلك يمد هذا المتحف صورة حقيقية لتطوّر بناء السفن الشراعية والبخارية خلال الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر .

فقد جمع به من السفن بين الماضي والحديث كما جمع في بناءه من الداخل بين الأطلال والخرائب وصالات العرض الحديثة المنسقة لعرض التحف والنماذج على أحسن نظام .

وفي نفس اليوم رأينا تراثاً آخر من التراث الأسباني لكنه لم يكن تراثاً عامّاً بل كان تراثاً إقليمياً يخص مدينة برشلونة وحدها يرجع تاريخه الى ألفي سنة الى الوراء . ونراه اليوم بين ظهرانينا في المتحف الأثري في منزل حديث بالقرب من كاتدرائية برشلونه لا يبدو عليه من الخارج القدم، ولا أثر من آثار الماضي، ذلك ما تراه عند دخولك ، إذ تجد نفسك في قاعة فخمة حديثة ضمت كل المؤلفات التاريخية لمدينة برشلونة . تفتح هذه القاعة الى دهليز ضيق يؤدي بك الى الطابق الأول من البناء ، فتجد نفسك بين خرائب وأطلال مدينة برشلونة الرومانية ، نقلت بعض اجزائها الى ذلك المتحف لتعطيك صورة واضحة عن نظم العمارة وتخطيط المنازل بمرافقها العامة كالحمامات ونظام تصريف مياه دوراتها في ذلك الوقت السحيق .

وفي جانب آخر من هذه المدينة اصطفت أواني الطبخ الفخارية والرحى والمسارج والمواقد التي كانت مستعملة حينئذٍ ، كل ذلك وضع بنظام تام بين دعائم من الأسمنت المسلح أقيم عليها ذلك المبنى الحديث لحفظ محلات ومكاتب موظفيه .

* * *

وبعد العصر طفنا بأرجاء جامعة برشلونة التي يرجع تاريخها الى القرن ١٥. وبعد زيارة قاعات المحاضرات والمكتبات استقرَّ بنا المقام للاستراحة بعض الوقت في إحدى قاعات الاستقبال لنتجاذب أطراف الحديث مع زملائنا الجامعيين من الأسبان ، وخاصة الشئون الثقافية التي منها نظم التعليم في أسبانيا ، ويظهر أن التعليم عندهم يشبه الى حدٍّ كبير التعليم عندنا في مراحله الأساسية الآتية : —

١ — مرحلة التعليم الابتدائية: وهي مرحلة اجبارية لتعليم كل طبقات الشعب ويلحق بها الأطفال في سن السابعة الى سن الرابعة عشر، وهي تقابل مرحلة التعليم الأولي والابتدائي عندنا. وقد رأت وزارة المعارف المصرية ضرورة توحيد التعليم في مراحله الأولى في مرحلة واحدة هي المدارس الأولية النموذجية .

٢ — مرحلة التعليم المتوسط : ويكتفي لمن يريد الالتحاق بهذه المرحلة ومرحلة التعليم الثانوي ان يقضي ثلاث سنوات بالتعليم الابتدائي. وتختلف سني الدراسة بالتعليم المتوسط حسب نوع التعليم كما يلي :

(١) مدارس النوتية ، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات يضاف اليها سنتان أخريان يتمرَّن خلالهما الطالب على ركوب البحر ويمنح بعدها شهادة معلمٍ نوتي .

(٢) مدارس المعلمين الابتدائي ، ومدة دراستها ثلاث سنوات .

(٣) مدارس التجارة المتوسطة ومدتها خمس سنوات .

ومن يريد الالتحاق بالتعليم الجامعي، فعليه أن يقضي سبع سنوات بالتعليم الثانوي ويلتحق به التلاميذ من سن العاشرة حتى السابعة عشرة، يتعلم فيها اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية والانكليزية وأدب الاندلس والأدب العالمي وتاريخ الاندلس والتاريخ العالمي والفلسفة والحساب والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة يمتحن بعدها امتحان القبول بالجامعة .

﴿ الجامعة ﴾ يبلغ عدد الجامعات الاسبانية اثنتي عشرة جامعة لا يزيد عدد كليات كل منها على سبع ، ولا تقل عن ثلاثة ، وجميعها يضم كليات (الفلسفة : الآداب) والعلوم والحقوق. وقد بلغ عدد طلبة هذه الجامعات حسب احصاءات ٤٥/٤٦ ما يقرب من ٤٣ الف

نسمة ، ثلثهم من الآنسات . بينما تعداد اسبانيا كلها ٢٧ مليون نسمة. ويظهر أن اقبال الفتيات على التعليم الجامعي لم يكن كثيراً بالرغم من حرية الفتاة التامة في أن تتعلم ما تشاء وتلتحق بما اختارته من كليات الجامعة ويلتحق أغلبهن بالكليات النظرية كما هو الحال في مصر لملاءمتها لاستعدادهن الطبيعي . أما أقل الكليات اقبالاً عليها فهي كلية الطب والحقوق والطب البيطري لأنها كليات لا تتفق وما خلقن له من الحياة . فكلية الطب وما فيها من تشريح يحرج احساساتها الرقيقة ، كما لا يتحمل خريجات الحقوق مشاق النيابة أو القضاء وغير ذلك .

إذا قارنا تلك الحال في أسبانيا بنظيرها في مصر ، وجدنا أن جامعاتنا لا تزيد على اثنتين وعدد طلابها لا يزيد على العشرين الفاً بينما تعدادنا يقل سبعة ملايين نسمة فقط ، يضن أولو الأمر باقامة جامعتين في كل من عاصمة الوجهين القبلي والبحري ، ويجب ألاّ يحرم الشعب من التعليم الجامعي وخصوصاً بعد أن تجلت رغبة الشباب وتشوقه الى التعليم ولا ضير من ذلك التوسع في التعليم ما دمنا قد احتفظنا بمستوانا العلمي. وليس معنى ذلك اننا نطالب بانشاء اثنتي عشر جامعة كأسبانيا ، بل نطالب بتحقيق ما فكرت فيه الحكومة جدياً بانشاء جامعة أسيوط ، وأخرى في طنطا، فيتوفر لطلبة تلك المناطق مشاق السفر والغربة ومطالب الحياة، كما يقل الضغط على جامعتي فؤاد وفاروق. ويستطع طلبتهما التفرغ لدراستهم بالبحث والتروي والتمحيص في جوّ هادىء لا تقلقه كثرة الطلبة ، ولا تستلزم جهداً من الأساتذة في إبلاغ مايريدونه الى أذهان طلبتهم فيرتفع مستوانا العلمي .

وإذا نظرنا الى نسبة الأمية في كل من القطرين نجدها في أسبانيا ٣ر٤١ ٪ بينما في مصر لا تقل عن ضعف هذه النسبة في اسبانيا . وقد أخذت الحكومة الاسبانية تعمل جاهدة على مكافحة الأمية بشتى الطرق التي منها عدم اطلاق سراح أي جندي في الجيش إلاّ بعد أن يتعلم القراءة والكتابة .

ونحمد الله على عناية حكومتنا في هذه الناحية في السنوات الأخيرة لتنفيذها مشروع السنوات الخمس لمكافحة الأمية متمنين لها التوفيق في مهمتها .

تخللت تلك المحادثات بيننا وبين زملائنا الاسبانيين بعض ما سمح به كرمهم من تقديم بعض المرطبات التى أهمها ، على سبيل المثال شراب شعبي أبيض اللون، حلو المذاق والرائحة، غريب عنا في طعمه ، بالرغم من أنه في متناول يدنا ، فهو شراب من عصير حب العزيز ويطلقون عليه «ارتشاتا» ويصنعه الأسبان كما نصنع نحن المصريين شراب عصير الشعير (سوبيا) .

وقد أتيحت لنا فرصة أخرى للرد على جميلهم في مناسبة الاحتفال بعيد ميلاد زميلة

اسبانية تدعى « انبارة » وكان من حسن الصدف أن كان مع أحد أعضاء الرحلة بعضاً من « القمر الدين » جلبه معه من مصر . وقد أحسنت زميلاتنا المصريات صنعه فاستساغه الاسبانيون وأعجبوا به .

* * *

وفي اليوم الثالث تركنا مدينة برشلونة لنقضي نزهة خلوية في أحد ضواحي المدينة الجنوبية « مونتسرات Montserrat » وهي منطقة جبلية متنوعة المناظر بين الوهاد والهضاب وسفوح الجبال ، مغطاة بأنواع شتى من الأشجار كالصنوبر والبلوط وأشجار الفاكهة. وقد استغلّ الفلاحون سفوح هذه الجبال وتربتها الحمراء الخصبة ، وأعدّوا سفوحها على شكل مدرجات لزراعتها ، يساعدهم على ذلك تعرض سفوحها ، وخاصة الجنوبية لأشعة الشمس وسقوط الأمطار عليها .

وسط تلك المروج والسفوح الخضر صعدنا طريقاً ملتوياً أخذ في الارتفاع تدريجيًّا ، حتى وقفنا أمام حافة جبل شاهقة الارتفاع من الصخور الصلدة التي لا سبيل لتسلقها لشدة انحدارها . قيل لنا هذه قمة مونتسرات التي تعلو بمقدار ١٢٦٣ متراً عن سطح البحر اليها. أقيم في سفح ذلك الجبل فندق صغير لراحة السائحين ، ويتصل بقمة الجبل بسلكين كهربائيين تنزلق عليه عربتان صغيرتان تتبادلان الصعود والهبوط في دقائق معدودات يسع الواحدة منهما نحو عشرين شخصاً .

واستغلت مصلحة السياحة هذه القمة فجعلتها جنة وارفة ويسرت للسائحين كل أسباب الراحة في ذلك الجو الهادىء الخلاب ، ذي المشاعر الساحرية ، فأقامت بها المطاعم والفنادق وأمدتها بالماء اللازم ، كما أعدت أماكن ساحرة للاستمتاع بها تشرف على هوّة ساحقة أو وهاد عميقة.

وفي أعلى نقطة من القمة أقيمت قبة تلسكوب للرصد يصعد اليها بدرج ضيق طويل.

وكان الأجدر بمصلحة السياحة المصرية أن تستغل المرتفعات المحيطة بالقاهرة كتلال المقطم ، وتحيلها الى رياض غناء وارفة الظلال ، وتيسر لها سبل الانتقال المغرية كالعربات الكهربائية المعلقة ، وانشاء المطاعم والفنادق كما فعلت أسبانيا بمرتفعاتها .

محمد رجب البيلي

---

(١) ماتوليتو من المصارعين الاسبانيين في الوقت الحاضر وقد ارتفع أجره الى رقم استثنائي اذ بلغ ٢٥٠٠ جنيه عن كل مصارعة وهو من قرطبة ويبلغ من العمر ٢٠ عاماً

(٢) تربى هذه الثيران البرية في مراعي أندلوسيا وينتخب للمصارعة أشدها قوة وتحدد الحكومة طول قرونها وتحرم مصارعة الثيران التي سبق لها ان نازلت مصارعاً أو رأت وشاحاً

جمجمة من العصر الجيولوجي الاوسط

كشف علمي جديد

A Skull from the miocene age.

العصر الجيولوجي الأوسط معروف عند أهل أوربا باسم miocene age وهو من العصور التي كثر فيها الظهار بقايا الحيوانات الثديية وبخاصة الرئيسات Primata وهي الحيوانات العليا التي تتقدم في حلقات النشوء ظهور البشر .

وقد عنيت الجمعية الملكية البريطانية بالبحث عن هذه الطبقات فأرسلت بعثة علمية باسم بعثة كينيا البريطانية ، وخصت البعثة بالبحث اقليماً اسمه اقليم « كاڤيروندو » بمقربة من بحيرة ڤيكتوريا ، فعثرت في موسمها الثاني على أثر مستحجر من أهم الآثار التي خلفتها الرئيسات في طبقات الأرض . فقد أعلن دكتور ل . س . ب . ليكي Dr. L. S. B. Leakey مدير الحفريات في ذلك البعث خبر العثور في جزيرة روسنجا : Rusinga في الثاني من شهر اكتوبر الماضي على الجزء الاكبر من جمجمة لقرد من نوع من القردة عاش في العصر الجيولوجي الأوسط يتبع جنساً يعرف في العرف العلمي باسم فروكنصول Froconsul . ويرجح أنه من النوع الذي وصفه العلامة هوپوود : Hopwood وأطلق عليه فروكنصول الأفريقي : P. africanus

وطرافة هذا الكشف تنحصر في أن كل البقايا الحفرية التي عثر عليها في افريقية من مخلفات العصرين الأوسط والأجد Pliocene (أي العصر الثلثي الحديث) قد اقتصرت على بضع أسنان وقطع من فكوك غير كاملة . أما هذا الكشف فعبارة عن الجزء الأكبر من هيكل وجهيّ وباحة كبيرة من الحقف: Brain case . ولقد يرى من الصورة التي ننشرها مع هذا الكلام أن الفكين والهيكل الوجهي كاملة تقريباً ، ولو أنها غير مستقرة تماماً في وضعها الطبيعي لتشويه أصاب الجزء الأيسر .

وأهم ما في هذه الجمجمة من المجالي التشريحية ظاهر في منطقة الجبهة ، فانها خالية تماماً من الحيد النوقيحجاجي : Subra-orbital torus ، وهذا الحيد من الظواهر التشريحية المبينة في القردة البشرية الأفريقية التي تعاصرنا . والمظهر الثاني الذي يلفت نظر المشرّحين ، هو رقة الجدار الحقني : Cranial Wall . وهذه البقايا هاشة كل الهشاشة ، وأجزاؤها ضعيفة التماسك ، بحيث احتاجت الى عناية تامة ومهارة فائقة لاستخلاصها من المحيط الذي انطمرت فيه .

ومسز ليكي أول من وقع نظرها من افراد البعثة على هذا الركاز العلمي الفذ ، وكان أول ما ظهر لها منه بعض أجزاء من هذه الجمجمة ، انحسر عنها الرماد في منحدر كانت تعمل فيه البعثة ، فنبهت زوجها الى ما ظهر من هذه الأجزاء ، فاستدار بالحفر من وراء المكان الذي استقرّت فيه ، وما زال يعالج الموقف بعناية العالم الخبير ، حتى استخلص هذا الأثر الحفري الثمين .

وقد نقلت هذه الجمجمة الى انجلترا بالطائرة حيث رافقتها مسز ليكي فوصلت هنالك في ٣١ اكتوبر من السنة الماضية (١٩٤٨) وأودعت في المتحف الخاص بقسم التشريح البشري في جامعة اكسفورد ، ليكب العلماء على دراستها دراسة كاملة ، وتقارن بما يقرب من مئة أثر حفري . عثرت عليها بعثة كينيا العلمية البريطانية في بقايا رواسب العصر الأوسط الجيولوجي في خلال العامين الماضيين . والى جانب ما عثرت عليه البعثة من بقايا الرئيسات المستحجرة في طبقات ذلك العصر ، جمعت كثيراً من بقايا الفقاريات Verteprata ، فكانت من أكثر البعوث العلمية توفيقاً في خدمة العلم .

اين المفر

ديوان شعر جديد للشاعر : محمود حسن اسماء

« فيأيتها الأجنحةالضاربة في ضباب الشرق
شقي حجاب السر المختم على جراح الوجود

« والطمي ظلام الحياة الشقيـة بعويلك الجبار علها تهتك قنـاع الرق عن و
الجاثي على رياء الزمن

ومرّي بترنيمك السماوي على أسوار هذه الأرض المحروقـة من النـور .... ا
سحرها يصحو من غطيطه الطويل على دف هذه المزامير ، ويقتات باشراقة من
الغناء الجديد

«واجرفي بنارك الحرة الواثبة هشيم الواقفين بتوابيت الماضي في طريقك الطو
وأيقظي الغاب والرعيان . . . . . . محمود حسن اسماعيل

«وانفضي عنك غبار الذل والعبودية ، واطلقي الفكر في ظلمات وجودك ينب
ويصهر جلاميدها ، فيحولها شعلة قدسية تتلألأ كأنها كوكب درّي توقد من شـ
مباركة أصلها ثابت في أغوار الماضي ، وفرعها ينبثق في الأزل

«ورفرفي بأجنحتك السماوية ،ضاربة في أجواز هذا الـكون نحو اللانهاية ،
موقظ الأرواح

«وحطمي الحجب ومزقي الأستـار ، وتوجهي نحـو المجهول الذي يتوسل
المتوسلون بدعائهم صارخة : جد عليّ بشعاع منج من بسمات غفرانك وأيقظ روحي

«وثوري على الزمن وعلى الأقدار ، وانسي شقاء الماضي ، واستقبلي أشعة الا
يضفيها عليك المستقبل الباسم ، وأذلي أعناق أعدائك وضعيها تحت ثقل أقدا

الرغام ، وارسلي الصيحة الداوية تزلزل منها الأرض ، وتهتز لها الجبال ، واقذفي وجوه الجبابرة العتاة بحمم من إيمانك

«أنتِ أيتها الأجنحة الضاربة في ضباب الشرق

«ارسلي رياحك الهوج على ذلك الضباب فبدّديه ، وتنسمي الشمس والدفء والحياة ، وادرجي بقدم ثابتة وجنان وثاب : فان المجهول الذي يوقظ الأرواح قد تنفس لك نوره . إنه مس آلامك . انه رآك ......

* * *

هنا في ديوان هذا الشاعر الذي يبحث عن مفر تفلت منه تلك الأجنحة الضاربة في ضباب الشرق ، تكمن هذه الروح . الروح التي تحلق في آفاق الشعر البعيدة ، فتلهم المعنى الفذ ، والخيال الرائع ، والعبرة التي تعظ والحكمة التي تبقى ، وتسقيك الخمر التي توقظ ، وتريك الحياة التي لا تموت .

هذا الشاعر أنشودة متصلة الترانيم ، متسقة النغم ، كأنه القيثارة التي لا تضرب عليها أصابع فانية ، بل تحرّكها مشاعر تستمد من أعمق أغوار النفس ، ومن أبعد غمرات الوجدان ، فتخرج هفافة كأنها النسيم ، ريّانة كأنها ضفاف النيل الندية ، تلك الضفاف التي اختلبت الشاعر وأوحت بالشعر ، أو كأنها قطرات الندى الصافية على ورق الصفصاف التي تتدلى أماليده الطويلة على الضفاف فتوحي بالنيل وبمصرَ ، وبالقرية والشمس وبالجزيرة ، وعبيد الرياح الذين تستعبدهم رياح النيل وموجه الباسم الغضوب ، وحصاد القمر وصلاة العشب والبعث والشك والطريق الى الله وخمر الزوال ونار الغروب والنبي الجائع ، تلك القصائد التي تنشق من خلالها نسمات الحب والثورة والجمال والحلاوة والعنف والغضب والعفو والسخط والرضى والأمل واليأس ؛ كل هذه أشياء تعتلج في نفسك اعتلاجها في نفس هذا الشاعر ، فتنقلك من أفق الى أفق ، ومن سماء الى سماء ، ومن طيف الى طيف ، ومن أرض الى أرض ، فلا تلبث أن تأنس من روحك أنها مأسورة في أغلال تلك المعاني الفائضة ، فلا تنكر على الشاعر أن يسمي ديوانه «أين المفر» ؟ كلاَّ . لا مفرَّ . . . إن لم يكن في نفسك الحمى والمستقر .

لعلّي أكون مشغوفاً بمصرية هذا الشاعر ! ولعلي أكون قد بالغت في وصف شغفي هذا ! ولعلي كتبت ومصر من ورائي تهمس في وجداني : إني أطالعك من خلال هذه القصائد ! لعلّ مصر الأبدية التي تحلق بأجنحتها القوية في ضباب هذا الشرق ، قد هس هسيسها الخفي في نفسي فأفعمني بتلك المعاني ، فأجرى ذلك الذي كتبت على قلمي ! لعل ذكرياتي التي انطبعت في نفسي عن مصر وريف مصر ، وغدرانها الوارفة الظلال المنسابة انسياب الأفاعي بين الخمائل الخضر ، ونسمات السحر التي تطالعك مع الخيط الأبيض من الفجر بين الحقول المطمئنة الساكنة الهادئة ، أو ضفاف النيل المنساب حفافيها بشدة الجبار وكأنها تغالبه أن يجرفها معه ، أو غناء القبّرة عند الصباح ، أو صياح الكروان في سكون الليل والقمر نائم بين السحب كأنه قرصاً من الفضة سابحاً في بحر يعلوه الزبد . لعلّ تلك الذكريات المصرية الفاتنة هي التي أجرت قلمي بتلك العبارات ! عجباً . ألا يكفي الشاعر أن يستلّ من قلم ناقدٍ ما استلّ ، بما أيقظ في وجدانه من معانٍ ، وبما حرّك في نفسه من ذكريات كلها صدق وكلها حق ، وكلها مصر : أمّنا الخالدة !!! .

* * *

إن مصرية هذا الشاعر مصرية عميقة ، تضرب في صميم الوطن الى أعماق بعيدة من الأحاسيس الحية . لا تقتصر مصريته على أن يصف منظراً مصرياً أو يتغنى بمجد مصري . وإنما هو في شعره قطعة من مصر ، وعنصر من ترابها ، وجوهر من جوّها . فاذا وصف عبيد « الرياح » مثلاً ، لا تشعر بأنه يصف العبد أو الريح أو النيل أو الشاطىء ، بل يصف مصر منذ أبعد أيام تاريخها الى يوم كتب تلك القصيدة الفذّة . أما « عبيد الرياح » فأولئك الملاحون الذين يرون على شاطىء النيل أو على غدرانه يجرون سفنهم مغالبين التيار بحبال يشدونها الى صدورهم وعلى كواهلهم . أولئك الذين استعبدتهم الرياح والتيار فألقت بهم في تلك المحنة التي يغالبون فيها الطبيعة وذلك الجبار الأبدي ، معبود قدمائنا منذ أبعد العصور ، وهم :

جبابرة عوّذوا للهواء وبثوا رقاهم لريح المغيب
يلوحون صفاً وئيد الحراك كأنهم صلبوا في الكثيب

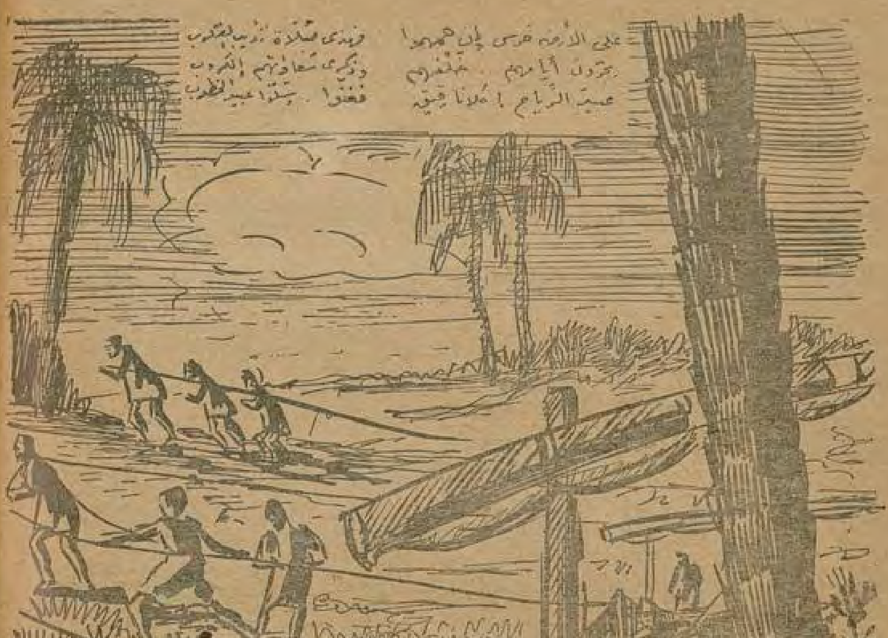
على الأرض خرس إذا همهموا
يجرون أيامهم . تخلفهم
عصف الرياح إملالا فتيه
وتدمى فلاة دروب الكروب
وذكرى شقاوتهم الحروب
فغنوا . تنشدوا عيد الطروب

يسيرون سير الهوان المريب   ويمشون مشي الزمان الكئيب
فتحسبهم -أوغلوا في الخيال   وعينك تأخذهم من قريب
على صدرهم في غضون الكفاح   أفاعي حبال تلف الجنوب
تجاذبهم خطوهم للوراء   فهم من عناد بقايا حروب
سواعدهم موثقات الزنود   ولكنها عدة للهبوب

تشق الفضاء بأصفادها فتنشق أجوازها أو تذوب
وأجسادهم حانيات لها ركوع المحمل ثقل الذنوب

* * *

شدَوْا واستجاروا وخاب النداء فغاصت خطاهم وشقوا الجيوب
ومرُّوا حفاة عراة لهم شهيق الثكالى وزفر الغريب
على الأرض خُرْسٌ وان همهموا فهذي صلاة تذيب القلوب
يجرون أيامهم خلفهم وذكرى شقاواتهم والكروب

* * *

عبيد الرياح : كلانا رقيق ! فغنوا وسلوا عبيد الخطوب

* * *

هذا مشهد واحد من مشاهد مصر، ولكنه مصر كلها ، منذ أقدم الأزمان الى اليوم. في هذا الشعر لمحات بل ومضات تردك حيناً الى أبعد أزمان تاريخنا القديم ، ثم تثب بك بة واحدة ، فاذا بك قد قطعت القرون الى يومك هذا . هذا والمشهد هو المشهد، والرجل و الرجل ، والنيل بذاته ، والسفينة بعينها ، والتيار والرمال والحبل المشدود ، والزمن بعيد الذي يجرُّونه من ورائهم وراثة منذ فجر التاريخ ، والكروب التي نزلت بهم لخطوب التي تتلقاهم الآن . أليست هذه مصر الخالدة ، التي أخذت الآن تضرب جنحتها في ضباب الشرق ؟

* * *

كذلك هو اذا تكلم عن « الجزيرة » ، فانه يرمز بها الى مصر . يطالعك بقصيدته ذه شجواً لين الأوتار ونغماً يخرق آذان الصم ، وأشعة تخترق صميم القلب ، وتظل ائغة حتى تستقر في أعماق الوجدان .

لم يلتفت الى العذارى اللواتي يدرن في الجزيرة أمثال الشموس ، أو الأوانس النُّفَّر و ظل الشجر على الأرض إذ يلوح مدرهماً ومدنَّراً ، كما فعل غيره من الشعراء الذين اقتصر يالهم على الجزيرة التي تقع حيال القاهرة على شاطىء النيل ، وانما تمثل مصر في الجزيرة . ليست كل قطعة من مصر هي مصر ؟

قال: «وأومأ النوتي بنايه الى اشراقة الشمس، فهمنا مع الجزيرة نشرب من هذه الصلاة»

سبقت الى النيل خطو الصباح   فتيَّمته بالصبا والفتون
وخمر الهآلهة في يديك   وكأس من الحب ملأى جنون
وثغرك تغريدة ما وعى   ترانيمها غير قلبي الحزين
عشقت صداها فغنيتها   ولقنتها لشفاه السنين
وما كنت أدري ما الهوى والحياه
ولا السحر في أغنيات الشفاه
ولا كنت أعلم سر الإلَه
سوى بعد ما لحت لي فتنة
وأقبلت لي مرَّةً تبسمين
وعيناك علمتاني السجود   وكيف أخر مع الساجدين
لهم دينهم في زحام الصلاة   وديني الضياء الذي تنشرين
عبدت بك الله ... ما في دمي   ولا في فمي غير هذا الرنين
فياولهاً ناعساً في الجفون   ويا سجدتان بدير الجبين
ويا قبلتان بخد الصباح
ويا بسمتان بثغر الأقاح
طغت بين جنبي نار الجراح
فرديّ لبلواي سحر المنى
وبثي حديث الهوى يا عيون!

* * *

أليست هذه أبعد آفاق الشعر، تنزل منها هذه الترانيم الشجية، فتثير في النفس ما نام من كوامنها، وتبعث في العقل ما بعد وانطوى من احداث القرون؟

اسماعيل مظهر

مكتبة المقتطف

تاريخ العالم

The Universal History of the World

كتاب نشر أصله الانجليزي في ثمانيـة مجلدات ضخام ، وحلي بآلاف الصور النادرة ، وكتبه عشرات من كبار رجال الاختصاص في العلم والأدب والفنون والتاريخ ، وعهدت ادارة الترجمة في وزارة المعارف بترجمته لفئة من رجالها صبروا وصابروا على نقله الى لغة الضاد في أسلوب سهل المأخذ قدر ما يستطيع المترجم أن ينقل عن جهابذة من أهل الاختصاص في مختلف فروع المعرفة ، واضطلعت بنشره مكتبة النهضة المصرية ، فأخرجت العدد الاول منه في أربعة وستين صفحة من القطع الكبير ، فجاء صورة كاملة للاصل الانجليزي ، وسينشر الكتاب أعداداً متلاحقة .

وأزاء هـذا العمل العلمي الكبير لا يسعنا إلاّ أن نحيي كل من اشترك في إخراجه بالرأي أو العمل أو الجهد ، تحية خالصة لوجـه العلم ونخص بجزء عاطر منها ناشري هـذا الكتاب أصحاب مكتبة النهضة المصرية ، فليس في هذه البلاد نقص في القدرة على الترجمة والنقل ، ولا نقص في أصحاب الرأي أو الفن ، ولكن النقص فيمن يقـدم على نشر مثل هذه الموسوعات الكبيرة التي تعدّ من مراجع فروع المعرفة ، ولا شك أن ظهور العدد الأول من هذا الكتاب في العربيـة يعد حادثاً تاريخيـًا في هـذه البلاد خاصة وفي العالم العربي جملة .

بدأ علم التاريخ يتألف منذ أقدم العصور ، وقبل أن يخترع الانسان الكتابة فقد خلف الأنسان آثاره الباقية في سطح الأرض وعلى صخورها وفي جوفهـا ، وانقضت القرون تلو القرون ، فضاع من معالم ذلك التـاريخ ما ضاع وبقي منها ما بقي ، فلمـا بدأ الانسان يرمز بالنقوش للمعاني المختلفة ، عني في أول ما عُني به أن يخلف أخبـاره منقوشة في الصخور

أو على الألواح المطبوخة وبدأ يدونُ عند ما ترك الأزميل وأمسك بالقلم الذي علّم الانسان ما لم يعلم .

وجرى علماء التاريخ في عصور متطاولة على تخليف المدوّنات يروون فيها الحوادث ويسجلون أسماء الملوك والعظماء وأعمالهم وعلاقة الدول والحضارات ، على وجه كان فيه من الاقتضاب والابتسار ، ما حمل العلماء على أن يعيدوا كتابة التاريخ عصراً بعد عصر ، ودهراً بعد دهر ، ليسدوا ما ترك المدوّنون الذين سبقوهم من ثغرات ، وليدلوا بآرائهم واستنتاجاتهم التي يستقرئونها من الحوادث ، فأخذ التاريخ الانساني يشب وينمو ، حتى اتخذ من العلوم الصرفة ومن العلوم النظرية أداة يكمل بها أطوار المأساة الانسانية فوق هذه الأرض ، ومضى يربط بين ما كشفت العلوم من حقائق هذا العالم وبين الانسان سيد أهل الأرض ، فاذا بالتاريخ يخرج بتطوره من عالم الإزميل يجري على الصخر الى عالم ما فوق الطبيعة ، فيُشرف بهامة الجبار على فروع المعرفة جميعاً . وما يظهرك على ذلك قدر ما يظهرك كتاب تاريخ العالم الذي نحدّثك عنه في هذه العجالة القصيرة .

نظر التاريخ الى عالم الحياة والى عالم الانسان نظرة أضيق ما يكون في أول تخلّفه . ثم أخذت هذه النظرة تمتد ثم تمتد ، متبعة في ذلك تطور الفكر والعقل البشري ، ومضى يزيح عنه غبار الجهل بحقائق الكون وحقائق الحياة ، فاذا بمصراعي الباب الذي غشى عليه الصدأ ينفتح رويداً رويداً ، فتظهر من خلاله تلك العوالم الشاسعة التي تدخل في نطاق التاريخ ، عوالم الحيوان والنبات والانسان والجماد ، وعوالم الفكر والفن والعقل ، وعوالم المجرّات والكوكبات والسدم ، وعوالم الأشعة الكونية والذرات وعوالم الشعور والانفعال والشهوات ، وإذا بالتاريخ يحتضن هؤلاء جميعاً ، ويمسك بيده القوية مشعل المعرفة يضيء به ظلمات الماضي ، ولكنه يقف أمام المستقبل المجهول وظهره الى هاوية .

هذا تصور التاريخ على ما يفصل لك هذا الكتاب . واني لشديد الاعتقاد بأن درس هذا التاريخ سيكون له الأثر الأكبر في تحويل الفكر الشرقي ، وبث روح التوثب الى المعرفة الشاملة ، التي اكتفينا منها حتى الآن بنتف وأقساط . ولئن كنا في هذا العصر

أحوج الشعوب الى حملة ثقافية ، بل حملات تقضي بها على ما خلفت الصحافة الصفراء والصحافة الاخبارية من مظاهر العجز الفكري الذي تجلى في جميع مرافق حياتنا العقلية ، فان هذا الكتاب وحده كفيل بأن يكون من أعظم أدوات البناء .

اسماعيل مظهر

بين العلم والأدب

للاستاذ قدري حافظ طوقان — مكتبة فلسطين العلمية — ٣١٠ صفحات من حجم المقتطف

قرّاء المقتطف يعرفون جيداً العالِم الفلسطيني الجليل الأستاذ قدري حافظ طوقان ، فقد تمهد في مدرسة هذه المجلة ، وتتلمذ على أساتذتها ودرج فيها حتى صار إماماً وحجة وثقة ونشر بحوثه على صفحاتها فعرف كيف يخضع جموح التعبيرات العلمية لسلاسة البيان العربي وكيف ينتقي الموضوعات العلمية ذات الاتصال بحياة المرء اليومية ليبسطها ويجلو خوافيها ويميط عنها حُجب الجهالة .

وقد أصدر الأستاذ طوقان أخيراً كتاباً بعنوان « بين العلم والأدب » نشر في فلسطين — وهي بلاد توزعتها القلاقل والحروب — يضم فيه بحوثه ومساجلاته وخطبه ومحاضراته التي أذاعها بوسائل النشر والمذياع والمنبر ، ليكون سجلاً لنشاطه في بضعة عشر عاماً .

والأستاذ قدري طوقان عالم بفطرته متشبع من العلم بسليقته ، فاذا ما تعرّض لمبحث علمي كان فارس الحلبة بغير نزال . ولكنه حين يتعرّض للموضوعات غير العلمية وحين يطرق الابواب التي تمليها عليه « المناسبة » نراه يجنح الى الأسلوب الانشائي ويغلّبه على الاسلوب « الحقائقي » مما ينشىء في كتابه فجوات يحسّ بها القارىء الذي حزم أمره على تلاوة موضوعات علمية مجرّدة ، فشتّان بين فصل دسمٍ كفصل « حول القنبلة الذرية » ، وفصل هزيل سابق له كفصل « الاحسان » ، وما أبعد الشقّة بين فصل مِمْتَلٍ بالحقائق كفصل « المكتشفات العظيمة من الوسائل البسيطة » ، وفصل بادي القصور مثل « من هو المثقف » ، وهذا التفاوت في مرتبة فصول الكتاب — وهو تفاوت مبعثه تباين موضوعاته وتناثرها — يعدّ في عرفي نقصاً ليت المؤلف الفاضل جانبه وتلافاه .

ومن المآخذ التي يعن للناقد أن يقتنصها للأستاذ طوقان أنه نشر أحاديثه ومقالاته وبحوثه كما هي ، فلم يمهّد لها أو يوطىء لها ببيان أو يبسط مناسبتها وملابساتها مما يعين القارىء على متابعتها تتبعاً كاملاً . فهو يقول في مستهل مقال له :

« سرّني اهتمام الريحاني بالفلك وما يحويه من أرقام ... الخ » ، ثم يأخذ في الرد على مقال الأستاذ الريحاني دون أن يشير الى اسم الكاتب كاملاً ، ودون أن يشير الى المكان الذي نشر فيه مقاله ودون أن يطلعنا على نص هذا المقال . فالقارىء يرى ردًّا ولا يرى المقال الذي حفز على هذا الرد ، فيصبح في شبه ضلالٍ كان يمكن اجتنابه لو أن الأستاذ طوقان أضاف مذكرات تفسيرية إلى كل مبحث من مباحثه ليستعين بها الدارس في درسه.

هذا عن عورات الكتاب ، أما حسناته فهي كثار وفيرة لأن للاستاذ طوقان اسلوباً فريداً في تبسيط المعميات العلمية وتوضيح خفايا العقد المستعصية . وله طريقة فذة في انتقاء موضوعاته بحيث يختار منها ما يشوّق ويرغب . فهو يبدأ كتاب « بين العلم والأدب » بفصل عنوانه « فضل الصفر على المدنية » وهو موضوع طريف طليّ جذاب عامر بالمعلومات العلمية الممتعة. ويحدّثك الأستاذ طوقان بعد هنيهة عن « غرائب الاعداد وعجائب المعادلات » فينقلك معه الى موضوع آخر لا يقل طرافة ولا روعة عن سابقه ، وهو كذلك ينطوي على زاد علمي مكدّس . ثم يحدثك عن أمراء العلم من الشرقيين أمثال ابن الهيثم وابن ماجد ومن الغربيين أمثال السر جيمس جينز ومكسويل وفراداي وادنجتن فيكون حديثه تساوقاً بين العلم والأدب وتآلفاً بين فن كتابة السير وفن تبسيط العلوم .

ولولا نكبة فلسطين — بل نكباتها — لكان الأستاذ قدري طوقان يتصدر اليوم رعيلاً كبيراً من العلماء العرب ، ولكن هذه المأساة حالت دون أن يبزغ الى جانب الأستاذ طوقان نجوم أخرى من تلامذته ورفقائه . فلطفاً اللهمّ بأرضك المقدسة لأن العلم والأدب فيها يكادان يختنقان بفعل الثورات والاضطرابات والحروب التي ما فتئت تصلى فلسطين نارها حامية .

وديع فلسطين

باب الأخبار العلمية

الفيتامينات وعمر الانسان

تعيش ملكات النحل مدة أطول مما تعيشه الذكور فمتوسط عمر الملكة يبلغ حوالي خمسة سنوات بينما الذكر يعيش في المتوسط صيف واحد. والأسباب المحتملة هي أن الملكات تتغذى على مزيج من العسل وحبوب التلقيح وهو الطعام الذي يعرف باسم الغذاء الملكي. بينما الذكور محرومة منه.

وبعد عدّة أبحاث وجد الدكتور توماس س. جاردنر أن التفسير يقع في الغذاء الملكي « لحامض البانتوثينك » الموجود في الغذاء الملكي يزيد متوسط الحياة لحشرات الفاكهة من ٣ر١٣ يوماً الى ١٧ يوماً ويُكوّن هذا الحامض في صورة مركّزة أحد أنواع فيتامين ب المركب.

***

وبعد أن أثبت الدكتور جاردنر تأثير هذا الحامض رجع الى أبحاث أجراها قبل سنة ١٩٤٦ على الفيران. ففي ذلك الحين وجد أن العمر المتوسط للفيران يزداد حين تعطى بعض الفيتامبنات الأخرى الموجودة في الخميرة.

وبدأ يجرب ليرى تأثير هذه الفيتامينات الأخيرة مع حامض « البانتوثينك » على إطالة عمر حشرات الفاكهة فوجد أن عمرها المتوسط قد ازداد من ٣ ر ١٣ يوماً الى تسعة عشر يوماً أي زاد بنسبة ٦ر٤٦ في المائة. فإذا كان لهذا المزيج نفس الأثر على الانسان إذن لازداد متوسط سنين حياته حوالي ثلاثين سنة.

ولكن ليس هناك الآن من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن هذا المزيج من الفيتامينات سيكون له نفس الأثر في الإنسان ولكن على أية حال فان تقرير الدكتور جاردنر المتضمن لنتائج أبحاثه والذي قدمه الى الجمعية الكيميائية الأمريكية سيثير الاهتمام بالفيتامينات من زاوية جديدة. إذ سيحاول علماء الكيمياء الحيوية كشف ومعرفة الناحية الايجابية لعمل الفيتامينات عوضاً عن قصر اهتمامهم على رؤية آثار نقصها كما هو الحال الآن.

إبادة الفيران

إن الفأر عدوٌّ قديم للانسان وقد حاول العلماء القضاء على هذا العدو المخيف وإصابته في الصميم . واليوم نجد بين ظهرانينا ثلاثة مواد ألفها الكيميائي في المعمل لإبادة هذا المخلوق الضار سيكون لها فضل كبير على النوع الانساني .

ففي دولة كالولايات المتحدة نجد أن الفيران يبلغ عددها حوالي مائة وعشرين مليوناً وتلقى قائمة طعامها السنوية ، التي لا يتكفل بدفعها غير الانسان ، عامرة بكل ما لذَّ وطاب وبما يقدر ثمنه بحوالي مائة وخمس وعشرين مليوناً من الجنيهات إذ تمثل حوالي مائتي مليون أردب من القمح وكميات هائلة من الجبن والسكر وبيض الدجاج . الخ .

* * *

وليست الفيران كاللصوص تسرق طعامنا وتكتفي بذلك ، بل هي أضل سبيلاً فهي من القتلة السفاكين . إذ تنقل جراثيم أمراض مميتة يربو عددها على العشرين ، منها الطاعون والتيفوس وتقدر الاحصائيات أن الفيران سببت من الوفيات ما يفوق ما سببته جميع الحروب التي شهدها التاريخ .

وقد ضايقت الفيران الانسان من قديم العصور ولكن الانسان العصري يواجه اليوم فأراً أشد وأقوى من أجداده الأقدمين التي واجهها الرومان والمصريون القدماء ... فالقدماء حاربوا الفار الأسود بينما ظهر في القرون الحديثة نوع جديد هو الفأر البني ، تخاف منه القطط والفيران السوداء .. فهو فأر محارب مخيف ويفوق في عدوه اليوم الفأر الأسود والأنواع الأخرى من الفيران .

***

والآن قد بدأنا نتغلب على هذا العدو فقد ظهرت في السوق ثلاثة مبيدات للفيران أحدها هو الأحسن للاستعمال في المنازل [ويرمز إليه بالرمز « ا . ن . ت . ى »] لأنه غير ضار بالانسان .. وهناك دواء آخر وهو « كاستركس » أشد في أثره خمس مرات من الأول ولكنه سام للانسان . ومع ذلك فهناك مواد يمكن بها وقف فعله السام في الانسان .

أما المادة الكيميائية الثالثة (الفائقة القوة في إبادة الفيران) فهي « ١٠٨٠ » (تركيبها الكيميائي هو فلورو خلات الصوديوم) وهي مادة جد سامة عديمة الطعم واللون والرائحة ومميتة الى حدٍّ بعيد . ولا يجب أن يزاول استعمالها إلاَّ الاخصائيين إذ لا يمكن وقف أثرها السام بأية حال ...

البيفاترون

أعظم « سيكلترون » يستخدم اليوم في العالم هو الجهاز الموجود في جامعة كاليفورنيا والذي تبلغ قوته أربعمائة مليون ألكترون فولت . ويزن أربعة آلاف طن . ويزيد قطره على خمسة عشر قدم وبدأ عمله في سنة ١٩٤٧ .

* * *

وقد أثبت العلماء باستخدامه أن البروتونات والنيترونات (١) يمكن تحويل أحدهما إلى الآخر . وكان لقوته العالية أثر كبير في مساعدة العلماء في الكشف والبحث حتى أن الدكتور ارنست س . لورانس وهو الذي وضع تصميمه أعلن عن تصميم جهاز جديد هو « محطم ذري » ضخم يعمل بقوة تتراوح بين ستة وعشرة بليون إلكترون فولت . وسيكون للجهاز الجديد مغناطيس دائري يبلغ قطره مائة قدم ويزن حوالي ألف وثلاثمائة طن ... والاسم الذي أطلق عليه هو « بيفاترون » Bevatron — (وهو مشتق من بليون إلكترون فولت) .

والى الآن لم تبحث لجنة الطاقة الذرية في أمريكا تكاليف إنشائه التي تبلغ حوالي مليون ونصف مليون من الجنيهات ولا المكان الذي سينشأ فيه .

* * *

وفيما يلي بعض ما ساعد سيكلترون جامعة كاليفورنيا في إتمامه من أعمال رائعة خلال عمره القصير الذي لم يتعد السنة .

(١) تحطيم نواة الذرة الى حوالي ثلاثين من الدقائق . أي عشرة أضعاف عدد الدقائق التي كانت معروفة قبل الحرب .

(٢) كشف العلماء به عمليات ذرية جديدة وأكثر تعقيداً من العمليات التي شوهدت من قبل في تحطيم نواة الذرة

(٣) أبان الطريق لصنع مائة من النظائر الاشعاعية الجديدة التي لا يمكن إنتاجها في المصانع الذرية

(٤) أكد لأول مرة نظرية هيزبرج التي تقول بامكان تحويل النيترونات الى بروتونات ثم ثانية الى نيترونات

(٥) أنتج بمساعدة « غرفة ويلسون » الصورة العلمية الأولى لسنة ١٩٤٨ وهي صورة أكمل تحطيم للذرة توصل اليه الانسان

جمال الدين محمد موسى

---

(١) البروتونات دقائق ذرية موجبة الكهرب في حين أن النيترونات دقائق ذرية متعادلة كهربياً ووزن النيترون يساوي تقريباً وزن البروتون وهذين النوعين من الدقائق الذرية توجدان في نواة الذرة

فهرس الجزء الاول

من المجلد الرابع عشر بعد المئة من المقتطف

١ الروحانية وتطورها عند البدائيين وفي العصر القديم : ا . م
٥ نظرات في النفس والحياة — نظرات لابرويير : ع . ش .
١٢ مضاعفة شحنة النواة
١٨ الشلال (قصيدة) عدنان مردم بك
١٩ دماء الذبائح غذاء للانسان صالح : عوض جندي
٢٥ الشخصية الموسيقية المصرية : فؤاد محمد شبل
٣٠ الغلال المعمرة
٣٢ يوحنا مايو
٣٣ الاسكوريال
٣٨ ڤيتالي : (قصة) تأليف جوتفريد كيلر : ترجمة عبد المنعم صادق
٤٨ روبرت بويل
٤٩ برشلونة : محمد رجب البيلي
٥٧ جمجمة من العصر الجيولوجي الأوسط : كشف علمي جديد
٥٩ أين المفر : اسماعيل مظهر

٦٥ مكتبة المقتطف * تاريخ العالم : اسماعيل مظهر . بين العلم والادب : وديع فلسطين
٦٩ أخبار علمية * الفيتامينات وعمر الانسان . ابادة الفيران . البيفاترون : جمال الدين محمد موسى

لحق المقتطف

رسالة الشاعر : ابراهيم الابياري